حافة الجريمة

على حافة الجريمة

محمد عبد الحليم عبد الله

كتب عربي
(شــــراء)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل ٦١١٩١٥

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

حافة الجريمة

لم يكن على شاطئ النيل أحد فى هذه اللحظة ، وكان سائرا يملؤه الخوف ولو أن الشمس لم تغرب بعد . وحقول القمح فى أيامها الأخيرة .. سنابل تنتظر الحصاد ، وكرم نخل يلوح من قريب جذوعه فى لون تربة الأرض .

لا يدرى إلى أين يذهب ، وحتى الخاطر الذى يزلزله ليس مستطيعا أن يبوح به لأحد . لأن مجرد البوح به يعنى وقوع جريمة فى التو واللحظة . صرخة امرأة أو صياح رجل تعقبه حوادث لا يمكنه وقفها .. حوادث مثل الطوفان .

وهو لذلك يمشى الهوينا وقد كتم خواطره .. يكاد يكتمها حتى عن نفسه ، لكنه مزلزل من الداخل ، ففى عين امرأة شك خطير حين همست له بهذا الخاطر فوضع كفه على فمها بحركة لا إرادة فيها . كأنما ليمنع الفأل السيىء أو ليتقى وقوع جريمة ..

غير أن الفم المسدود لم يمنع العينين أن تفضيا بما تشاءان .. أكثر من الفم .. بل آزرتهما الدموع .

وعندئذ دس فى جيبه « غدارة » وسار على النيل . ذيل جلبابه تحت إبطه حتى لا يتعثر ورائحة عرقه تصل إلى أنفه من الجهد .

وكان الهدوء الخارجى يؤكد له بمنطق لا يعقله هو أن شيئا رديئا لم يحدث . فلم ينتبه إلى النيل الهادئ ولا إلى السعف الذى لا يهتز ولا إلى ناى يناغى على الشاطئ الثانى للنهر .

وسار يزفر ويتلفت ولكن الهدوء الخارجى أخذ يعيد نفس المنطق . لكنه لا يستطيع أن يبتلعه .. إنه خائف . عليه أن يحمل الهم وحده لعدة ساعات وإلا تحولت القرية إلى ساحة قتال . وربما قبل أن تنقشع المعركة يتبين الطرفان أن القتلى أو الجرحى فيها كانوا قربانا لإله طائش .. إله وثنى لا يعرف الرحمة .

ثم هو بطبعه مشهور بأمرين .. إنه يضع « القرش » فى مكانه و « الطلقة » فى مكانها . لم يسرف و لم يتعد وإن كان قوى البناء شجاع القلب .

وقف يضرب الأرض برجله ويتلفت كدليل ضل الطريق . وحلق فوق رأسه غراب فنظر إليه وتبسم .. إنه لا يريد أن يرى ما يدعو إلى التشاؤم . ثم سار بضع خطوات لم يذهب بعيداً . ووقف مدهوشا خافق القلب فقد رأى على الأرض أثرا للعبة يحبها ابنه كاد يشم فيها رائحته . وهو شخصيا قد علمه إياها . وهو شخصيا قد لعبها وهو صغير .

جنينة وحقل صغير . بساط من التراب خطط وسقى بالماء وزرع بسعف النخيل وغصون الشجر وعلى رأسه كومة مرتفعة صبت يد منها الماء بإناء فتكون المنظر .. منظر يكبر الطفل ويصغر الرجل .. ذكريات ماض ومستقبل ..

وتلفت .. ليس هنا أحد ، لكن .. كأنما أحس أن أنامل ابنه هى التى صنعت هذا الشىء ، وتذكر أنه يعبر من أرضهم ومن غير المحتمل أن يجئ ابنه حتى هنا ..

وتسمر فى مكانه . طافت برأسه ذكرى عداوات وإحن يشغل

القرويون بها قلوبهم إلى مدى طويل . كأنما الليل الخالى من المشاغل مكلف بأن يحتضن هذه العداوات ويربيها ويغذيها .

ونظر إلى الشمس ، إنها على وشك أن تغرب . وتموجت حقول القمح فى حركة مثل حركة النهر وخشخشت من نسمة عابرة . وكسر عينه ونظر إلى الشمس . كان يرجوها بقلبه ألا تغيب فليس معنى غيابها والموقف كما هو إلا جريمة وهلاك .

ثم اتجه نحو النهر . كان مسترسلا فى حركته هادئا مثل الحصير وعلى شاطئه الشرقى يقوم الجبل الأشهب الذى ترتمى عليه الأشعة ثم تحول بصره إلى الحقل والجنينة تلك التى زرعها طفل .. سعف نخيل وأعواد خضراء .. وماء وساقية . وموقع قدم لطفل فى سن ابنه مرسوم على الأرض المبلولة بماء الرى حول الحقل الصغير .

وتأوه .. وتحسس جيبه .. كانت الغدارة فى مكانها منه . ونظر إلى النهر .. كأنما ليسأله هل هناك جريمة . ولم يفطن إلى ذلك الهيكل القديم الموضوع هناك مقلوبا لمركب شراعى ريثما يصلح .. أو لعله أهمل ..

ومن وراء هذا المركب القريب من ماء النهر رأى صبيا فى مثل سن ابنه .. ست سنوات .. قد شمر أذيال جلبابه وربطها حول خصره وبدت ساقاه السمراوان المعروقتان وقد ابتلتا بالماء وفى يده كوز من الصفيح ملأه من النهر واتجه به ليصعد إلى الطريق ويتم اللعبة .. يسقى الجنينة والحقول .

دق قلبه بعنف . فقد حسبه ابنه وليس به . لكن .. على كل حال فإن الموقف يستدعى عملا .

تلفت حوله كما يفعل البازى وهبط إلى مسطح الأرض القريب من

كسر عينه ونظر إلى الشمس
كان يرجوها بقلبه ألا تغيب

الماء . كان الصبى يدور حول المركب ليأخذ طريقه إلى أعلى .. إلى حديقته وحقله والماء فى يده وانتبه فجأة من أحلامه على خطوات رجل ينحدر إليه .

لم يأبه به . لكنه ما لبث أن رأى فى عينيه شيئا فخاف . بغريزة الخوف من الظلام التى تبكى الرضيع حملق فى الرجل وارتعد فسقط الكوز على قدميه وسال ماؤه على الرمل . و لم يكن فى قلب الرجل شيء إلا صورة ابنه هو .. ابنه المماثل له فى العمر والذى ملأ قلبه الخوف عليه من أهل هذا الطفل الذى يحمل الماء ليسقى جنة صغيرة خلقتها أحلامه .

***

لم يكن فى رأسه فى هذه الوهلة سوى الهمسات والوساوس والأحقاد . كان فى مكمن لا يخطر على بال . كان راقدا هو والطفل تحت المركب المقلوب على الشاطئ على مقربة من الماء .. وضع يده على فمه وسحبه ودخل به إلى هناك .. رهينة لحرب محتملة الوقوع . فإن هناك احتمالا كبيرا أن يكون ابنه قد خطف بيد أهل هذا الصبى فابنه لم يعد منذ الصباح إلى الدار وبدأ النسوة يهمسن بأن هذا كله جائز .

و لم يكن فى نيته أن يفعل هذا . كان قد انحدر إلى الصبى بعامل من الحنين لتقارب السن . انقلب فجأة إلى ضغينة حركتها الشكوك ومع أشعة آخر النهار رأى الصبى فى عينى ذلك الرجل شيئا يخيفه .. بدت الصرخة على وجهه قبل أن تنبعث من فمه فدب الخوف إلى قلب الرجل الذى لم يكن يضمر شرا . وشعر أن مصير ثلث هذه القرية معلق بصرخة هذا الولد . لن

يكون هناك مجال للتفاهم وسيدل حقد على مكان حقد آخر حتى لا يبقى فى القلوب موضع للرحمة .

لذلك فإنه قد وضع يده على فمه وسحبه ودخل تحت المركب فقد شعر بقلبه أن هناك علاقة ما بين هذا اللقاء ومصير ابنه ..

كانت الفرجة التى دخلا منها واقعة ناحية الماء . ناشئة من أن جسم المركب قلب على أرض غير مستوية ترتفع قليلا ناحية النهر وتنخفض كثيرا ناحية الشاطئ .. وعندما احتواهما المكان كان طبيعيا أن يخاف الصبى وأخذ يردد بصوت متقطع كان الرجل يعرقله بكفه قائلا :

« ح اقول لابويا برعى .. ح اقول لابويا برعى » ..

عندئذ وضع يده على فمه برفق ليمنع ارتفاع الصوت تماما كما وضعها على فم زوجته حتى لا تقول كلمة يتشاءم منها .

وأحس وهو رابض مثل الوحوش أنه يقف على « حافة الجريمة » ولم تبق إلا شعرة واحدة ليسقط فيها . فهناك أصوات بدأت ترتفع على الطريق . أصوات رجال يتكلمون كلاما نصفه دمدمة . بعضه ذهب هباء لبعد المسافة وبعضه ذهب هباء لدغم الكلام . لكنه على كل حال عرف فيهم صوت أحد أقارب الصبى ..

كان الظلام قد نزل . وكان لا يرى شيئا إلا صفحة الماء تنعكس عليها النجوم . وفكره محلق فى داره ويده على فم الصبى لا يريد شيئا إلا منعه من الصراخ حتى يتدبر الموقف .

وسمع خشخشة على ظهر المركب فارتجف .. لعل فأرا كبيرا يمر فوقه .. ورفسه الطفل برجله فى بطنه فكبل رجليه بيده الأخرى . إنه يريد أن

يتماسك لا يريد حتى الآن أن يتردى وعن له أن يسأل الطفل عن ابنه .. مجرد كلام .. كأنما الموقف أراد متنفسا . لو أنه يعلم أن السؤال ربما يؤدى إلى الندم لكنه يريد أن يفر من هذا العبء فهو سجين مع كائن ربما دفعه إلى الجريمة فى وحدة وظلام وحصار ومعه منديله وغدارته لكن قلبه لا يزال حتى الآن رافضا أن يفعل شيئا .

قرب أذنيه من فم الطفل وسأله :

ـــ هل رأيت ابنى أحمد ؟

وكانت كفه على فمه لكنه استطاع أن يسمع كلمة :

ـــ لا .. لا ..

فتنهد الأب . وعادت الأصوات تتناهى إليه من أعلى الطريق . وكأنهم لم يكتفوا بأن يمروا كالديدبانات بل جلس ثلاثة منهم فوق صخرة يتكلمون . وكان صوت أحدهم غاضبا . ارتفع فى ظلمة الليل حتى وصل إليه تحت المركب .

ـــ لا فائدة من البحث .. هو المسئول ..

ـــ آه .. وحش .. آ .. كلهم .

ولم يعد الصوت يصل إليه واضحا . وأحس أن الطقس قد بدأ يتغير . بدأت النجوم تهتز على صفحة الماء . لم يعد النهر ساكنا .

فقد أخذ نسيم أخريات أبريل يتحرك كخريف دافئ . وهدأت أصوات الجالسين ثم سمعهم يدمدمون .. أصواتهم تبتعد بما يدل على الانصراف وعندئذ أدنى أذنه من فم الصبى وسأله :

ـــ هل رأيت أحمد ؟

— ...

ـــ هل رأيته أو سمعت عنه خبرا ؟!

— ...

رفع يده من على فمه فألفى أنفاسه منتظمة . هل نام ؟!.

نعم لقد نام . غير أنه لمس جبينه فألفاه دافئا . وقرب كفه من فم الصبى الراقد فأحس نفسه محموما . هل هو الخوف ؟! هل أكلت المفاجأة بقية حيويته فأضناه الجهد وخدره النسيم ..

وأيقن الرجل أن هذا من عناية الله . أحس أنه ابتعد شيئا ما عن (حافة الجريمة) فلو أن الصبى أصر على الصراخ لوقع شيء لا يخطر على البال . إنه يستطيع الآن أن يفكر بهدوء نوعى . هدوء المتعبين حين يستلقون على الأرض .

وفعل .. ولمس ظهره أرضا غير مستوية فأحس أنها تدلكه .. مواضع الألم فى جسمه كثيرة ومعظمها فى .. القلب .. وسأل نفسه وقد لمس عضده الغدارة تحت ثيابه : « لماذا تنسى الضغائن ؟! » لكنه عاد فتذكر أنها يقام لها فى القرية نصب تذكارى يقدمون له بين حين وحين أعز ما يملكون .

ولفترة ما شعر أنه هو وهذا الصبى فى معزل عن الحوادث .. فالصبى قد خطفه النوم وهو قد خطفه خدر حماه من أزمة الموقف . وعاد فسأل نفسه : « من الذى سيخبرنى الآن أن ابنى بخير أو بشر ؟! وماذا سأصنع فى هذا الصبى النائم ؟ هل أدفع به إلى الماء وأكون بذلك قد أخذت الثأر مقدما ؟.. طيب .. لكن .. ماذا يكون العمل إذا ظهر أن ابنى بخير ؟

(وتنهد) .. إننى أكون قد عملت جريمتين .. القتل بلا داع ثم إثارة الفتن من جديد بين عائلتى وعائلة هذا الصبى .. آه .. ماذا أعمل ؟ » .

وتسمع بأذن مرهفة . أذن القروى الخائف أو المتربص التى تلتقط أدق الأصوات وخفق قلبه حين مرقت إليه فى السكون زغرودة .. منغمة ندية ذكرته بطزاجة القشدة . إنها من النصف الجنوبى للقرية ربما من امرأة بشرت بغلام ولدته بنتها العقيم .. ربما تمت خطبة .. هناك شىء جميل على كل حال . لم تنبعث طلقات رصاص ولا صرخات .. وليل أبريل طرى النفس ... والوقت يمر ... وقال فى نفسه :

« يجب أن أعمل شيئا . يجب أن أعمل شيئا » .. وكان محقا فتأخره فى الخارج ربما أحدث مشكلة . ولأمر ما يغطى القرية هذا السكون .

تسلل وترك الصبى نائما . تحسس جبينه بكفه فألفى عليه بوادر الحمى .. ومن الطرق المأمونة وصل إلى داره .. يريد أن يعرف ماذا هناك ولا يزال الصبى رهينة مقيدا بالنوم .. وقبل أن يستيقظ — إن جاز ذلك — سيعرف كل شىء ..

أحس فى هذه الليلة أنه يمشى مثل الأشباح التى يحكون عنها . ليس لأقدامه وقع . ممكن أن يقطع الكيلومتر فى خطوة واحدة . قوى غريبة ملأت جسمه وعقله وقلبه . أحس أنه منفصل عن الناس . وكل كلمات تناثرت فى الطريق أصبحت لا تعنيه .

لم يكن فى القرية شىء غير عادى . غير أنه دهش لعدم اهتمام العائلة الأخرى بغياب ابنها .. لذلك شعر أنه شبح .. غريب يمر فى قرية لا يعرفها .. أو أنه فى حلم .. هل كل هذا معقول ؟!

ووصل إلى داره . كان هدوء شديد يخيم عليها . هـدوء الذيـن لا يريدون أن يعلم أحد عنهم شيئا . الذين يرغبون فى مداراة زلة وقعت منهم ..

كانت امرأته واقفة بالباب .. ورأى ابتسامتها ففهم أن ابنه عاد . لكنه هم بأن يصرعها . تلك التى بذرت فى نفسها بذرة خطرة .. بذرة تنمو وتثمر فى يوم واحد .. وربما ساعة . قالت بعد أن احتواهما الدهليز ..

ـــ عاد المشكوك .. كان بيلعب فى الغيط ..

وبصق الأب على الأرض ثم على الجدار الطينى ثم سأل :

ـــ يلعب ؟! لعبت نفسه على عود .. ليته لم يعد . كان يلعب مع من ؟!

فأطرقت الزوجة . وقفت كلماتها على شفتها . ثم قالت :

ـــ مع سعد ابن ..

فرد محموما :

ـــ ابنهم ؟! ابنهم ؟!

ـــ ابنهم .. زرعوا جنينة وسقوها على شاطىء النيل و .. و .. و .. وجملهم المسعور هرب منهم فى الحقول وخرجوا جميعا يبحثون عنه ..

فرد مذهولا :

ـــ جمل من ؟.

ـــ جملهم ؟.. جملهم ؟ كلهم خرجو وراءه حتى لا يعض أحدا . ولا يزالون يبحثون عنه .

فتداعى الرجل جالسا . ونظر إلى السقف . كان أسود من الدخان

لكنه خيل إليه أنه يرى السماء من خلاله . ومن خلال السماء كأنه رأى الله فأطرق حاملا رأسه بين كفيه ثم نهض كالملسوع . سألته امرأته :

— إلى أين ؟.

فلم يرد .

وامتد به السير قليلا . ليس إلى النهر حيث الصبى تحت جسم المركب ولكن إلى بيت امرأة عجوز مشهورة بالطيبة والحيلة . طرق بابها ففتحت . وشرح لها خطورة الموقف . وأفهمها أن أهل الصبى مشغولون بالبحث عن الجمل وإنهم بكل تأكيد غير منتبهين لغياب الصبى فكل فرد منهم يظن أنه مع الآخر وإلا لتغير الموقف تماما ..

وضعت المرأة طرحتها على رأسها واتجهت إلى النهر حيث ذهبت إلى الصبى وحملته وعادت به إلى داره زاعمة أنها كانت فى العزبة القريبة فرأته راقدا على الطريق على مقربة من جنينة زرعها . وها هو ذا البرد لحقه ...

« تبحثون عن حيوان وتنسون الإنسان ؟! » . وكان تأنيبها لهم فى الحقيقة اعترافا برحمة الله ..

* * *

وفى اليوم التالى كان الصبى لا يزال محموما . كل ما يقوله قريبا من قصته لا يصدقه الأصحاء من أهله .

أما الأب فلم يذق النوم وعندما نام أحس كأنه تحت هيكل مركب قديم يجثم على أنفاسه . ويحلم أن يديه ملوثتان بدم . وأن ابنه غارق فى النهر . وأن سقف الحظيرة سقط على المواشى . وأن امرأته تعانى سكرات الموت بعد

حادث ولادة .

وأن السماء تمطر غزيرا ورشح السقف يسقط على رأسه .

واستيقظ على عرقه وقت الضحى محطم الجسم فبادرته امرأته مبتسمة وهى تقول :

ـــ وجدوا الجمل وذبحوه .. وقد علق الجزار لحمه فى الشجرة .. هناك .. (وأشارت بكف مخضوبة بالحناء) .

فقال الأب .

ـــ نشترى منه مائة رطل لنوزعها على الفقراء .

فنظرت بعينين مستفهمتين لأنها لم تكن تعلم حتى الآن ماذا جرى . أما هو فقد كان يقول فى نفسه :

« الحمد لله . حيوان مسعور ذبحه الجزار وعلقه فى شجرة . نجى أهل القرية من مجزرة .. متى يا رب ننسى العداوات ؟! » .

★★★

التذكرة الخضراء

« لماذا يخفق قلبه هكذا كلما رأى القطار من بعيد يهل فى أبهة وقوة تتحدى الأحباب والأبعاد !؟ » .

لقد ركب الباخرة وركب الطائرة لكنه لم يكن يوم ركبهما ذلك الغلام الريفى الذى أتم ثلاثة عشر عاما ، وفى يوم خريف ازدحمت فيه محطة الركاب بشكل غير مألوف لأن طائفة من عمال الزراعة كانوا مسافرين إلى الشمال ، وكانوا واقفين جنب أمتعتهم فى قلق شديد أما هو فقد كان مسافرا لأول مرة فى حياته . ذاهبا إلى الإسكندرية ليدخل إحدى مدارس المعلمين ، وليس له فى الإسكندرية قريب ولا صديق . وأبوه فلاح رقيق لا يستطيع أن يترك أرضه ويقيم مع ابنه فى المدينة حتى لمدة عشرة أيام .. حتى تتم مراسم الالتحاق بالمدارس .. من فحص طبى وامتحان .

ولم تكن المشكلات تدرس عادة على مسمع منه ، والله يعلم سبب ذلك . وكل ما يستطيع أن يستنبطه اليوم هو أن أمه توارى عنه دموعها وهمومها التى عاشت فيها أكثر أيام شبابها ، وأنها كانت تصرخ فى وجه أبيه إذا ما حاول كشف أوراق الحياة العائلية أمام هذا الابن بالذات دون أولادها جميعا .

لماذا كانت تخاف عليه ؟!.

كان الاضطراب يهز عوده النحيف والأرق يقهر ليله إذا ما وقف مصادفة على إحدى مشكلات البيت وخصوصا الديون .. تلك التى يتحدث عنها بهلع حين يذكر المحكمة والمحضر والبيع والمزاد .. فكانت

هذه الأسماء الغريبة مثل عفاريت وجنيات تنضم إلى عالم المخاوف فى دنياه الصغيرة . نعم .. ولذلك بات الأبوان قبيل سفره ثلاث ليال يدبران الأمر كيف يسافر هذا الصغير ؟ وكيف يقيم فى مدينة الإسكندرية ؟!.

ولم تكن هذه القضايا تفحص إلا قبيل النوم .. قبيل نومهما . بعد أن يأوى هو إلى فراشه الأرضى فى حجرة مع أبويه وكان يعرف أنواع الأحاديث وأهميتها من طريقة نداء الأم .. عندما تهتف باسم أبيه وكأنها على وشك أن تسقط فى هاوية . عندئذ يطير النوم من عينيه ويتحتم عليه أن يمثل سكون النوم ، وتحت سلطان هذه العملية العسيرة يظل يستمع — فى خوف شديد — لوصف العالم الذى لم يروه هم . وعلم بمرور الليالى التى سبقت سفره أنه سيكون فى مرافقة الحاج إسماعيل . وهو رجل من القرية له ابن موظف هناك . وأنه سينزل فى ضيافتهم حتى تنتهى مراسم الالتحاق بالمدرسة . والخطوة التالية تدبر فيما بعد .

* * *

— « آه .. عال .. الحمد لله رب العالمين » !!.

وخرجت كل هذه العبارات مع تنهدات مرتاحة من فم الأم وصدرها . ورفع الأب عقيرته يطلب (لقمة) فقد طال الحديث والسهر أما الغلام .. المسافر .. فقد تظاهر بالنوم . لكن منظر قطار السكة الحديد . ورفيق السفر . وفراق الأم والأب والإخوة الصغار . والعالم الذى لم يصفه له أحد .. كل أولئك كان أشبه بكف تقبض على قلبه الغض أحيانا ترتخى وأحيانا تشد . وآيات من القرآن تتردد من فم الأب وهو يأكل . أما الأم فقد كانت لائذة بالصمت .. وفتح الغلام عينيه فى حذر وألقى نظرة على المشهد فرأى

القلق راكدا على وجه أمه ومتحركا على وجه أبيه وهو يتناول طعامه . ثم أغمض عينيه ، واستحضر صورة الرجل الذى سيكون فى حمايته فرآه طويلا عريض الصدر واسع الكرش يتكلم بأناقة ويؤكد كلامه بالحركة والأيمان . وسمع أمه تقول لأبيه :

ـــ لا أدرى لماذا أنا خائفة .. إن هذا الرجل حلاف .. وأنا أخاف منه .

لكن ..عندما لا يكون هناك إلا طريق واحد يؤدى إلى الغاية فإننا عادة نتجاهل أخطاره .

فأقسم الأب أن كل شيء سيمشى على ما يرام ، وأنه لو كانت هناك مصاعب فمن الخير أن يراها ابنه .. فكل هذا سيجعل منه رجلا .. واصطدم الغلام بكلمة (رجل) وتصور نفسه وهو فى طول أبيه وعلى شفته شارب مثله يميل إلى الصفرة مسترخ يدل على الطيبة . وشهقت الأم ببكائها فقامت وأطفأت النور . وعم الظلام وساد صمت متوتر تناهى فيه إلى سمعه نباح كلاب وقرقرة دجاج ثم صفير قطار يمر بين المزارع .

* * *

وكان القلق يسود المحطة الريفية الصغيرة يومئذ بشكل مريع ، والغلام واقف بجوار الحاج يحاول بين حين وحين أن يمسك كم جلبابه ليشعر نفسه بالأمان ، لكنه يعود ويتذكر أنه ليس أباه . ولم يوجه إليه الرجل كلمة واحدة طوال الانتظار المرعب الذى كان الفلاحون خلاله يحذر بعضهم بعضا من أن يتحرك القطار قبل أن يركبوا :

ـــ خلى بالك يا على . تناولنى القفة من الشباك . والولد من الشباك .

ـــ من الشباك ؟

— بالطول .. بالطول ..

— آه .. القطر بان .. شايف الدخان ؟!

وساد الهرج والمرج وتذكر كل واحد نفسه كأنه طوفان بلا ماء . وعندئذ أمسك الغلام بجلباب رفيقه ، فإذا به يدفع يده فى عنف ويقول له :

— اصعد ورائى . إننى سأمسك ابنتى .. هل تريد أن أحملك .. احمل (سبتك) واصعد به .

وتم كل شيء فيما يشبه الحلم . فمن المحال أن يتبين هذه التفاصيل . وألهمته غريزة الدفاع عن النفس أن يدفع الركاب بثقل السبت . وبين كلمات (حاسب . اطلع . انزل . اوعى . هات . خد) فى عصبية وسرعة وأنانية دخل من الباب الضيق البنى لعربة السكة الحديد ، ووجد نفسه على كرسى من الخشب بجوار شباك . وجو العربة جو سوق متحرك كالذى تركه فى القرية . ولم يلبث أن اكتشف شيئا خطيرا هو أن المسافر معه موجود فى العربة . ونظر من النافذة فرأى الشمس شديدة التوهج على الحقول ، وخيل إليه أنه سيرى والده واقفا على رأس حقل وأعمدة التليفون تجرى بسرعة لم يعرفها .. غريبة على من سار على تراب القرية . ولا أحد يكلمه . فشعر بغربة لا نظير لها . فبكى .. وعلى الرغم من كل هذه المصاعب التى أحس أنها فوق احتماله ظل جامدا فى مكانه .. ثبته الخوف . وبعد زمن لا يدريه رأى رفيقه داخلا يسد الباب فى اتجاهه إليه قادما من العربة الأخرى وعلى وجهه طمأنينة لا تصدق . ثم انحشر إلى جواره . وأخذ الغلام يتطلع إليه كأنما يذكره بشيء يسمى (الكلام) . أحس أنه فى حاجة إلى أن يقول أو يسمع ، وكان هذا

الضجيج من حوله نهر قريب لا حيلة للوصول إلى مائه العذب .

وتغافل الرجل عن نظرته المتوددة ونسيه فى جلسته المنطوية ومد يده أسفل الكرسى فأخرج كوزا من الذرة يأكل منه بشهية ، وانصرف عنه ، ثم استسلم بعد ذلك للنوم .

* * *

كان على محطة الإسكندرية أناس كثيرون عرف أنهم من أهل القرية عندما صافحوا الحاج إسماعيل وسألوه عن اسم هذا الغلام . كانوا بانتظار المئونة مع (الأبونيه) أو بعض القادمين إلى الإسكندرية .. وحمل الغلام قطعة كبيرة من متاع الحاج ، أما هو فحمل القطعة الصغرى التى تخص الغلام . وكادت كتفه تنبتر لكنه مع ذلك كان يتأمل ويتبع ببقية انتباهه وأعصابه الدليل الذى يسير أمامه حتى الأرض ذات البلاط المربع والسماء ذات السقف الزجاجى ويتبع ببقية انتباهه وأعصابه الدليل الذى يسير أمامه حتى لا يضل الطريق .

وجاءت اللحظة الحاسمة عندما وقفوا خارج بناء المحطة . كان ابنه بانتظاره هناك فى حلة سوداء أنيقة ، وفى رباط عنقه دبوس وعلى شنبه علامة تكبر . وصافح أباه ونظر إلى الغلام ولم يصافحه . ثم انتحى بأبيه ناحية ودار بينهما حديث فهم منه الغلام أنه ليس فى صالحه ، ثم ساد صمت ووقف الحاج يقلب كفيه ويطوح كميه . ورائحة الإسكندرية ونداوة البحر تملأ أنف الغلام والدموع فى عينيه . وأقبلت عربة حملت المتاع والأفندى والأخت وتركت الغلام و (السبت) والحاج واقفين على الأرض .. وأحس الغلام أن مصيره معلق فى خيط رفيع ولم يستطع أن يخمن ماذا

خيل إليه أنه سيرى والـــده
واقفـــا على رأس حقـــل ..

سيحدث . وكان السائق على أهبة أن يأمر الخيل بالسير ونظرة تخيير بالغة الحزم تنذر الأب بأن العربة ستتحرك . فتركها الرجل وجرى فى الميدان حيث عاد بطالب عرفه الغلام ووقفا يتهامسان والعربة فى مكانها والسائق مائل العنق والخيل تبدل رجلا برجل والغلام يحس إحساس الرقيق الذى يباع . وأخيرا .. سلم الحاج على الطالب وصعد إلى العربة . فأيقن الغلام أن الصفقة قد تمت !! وسالت دمعة من عينيه كانت لكلمة عذبة سمعها من الطالب .

— أنت مثل أخى .. ستبقى معى أنا حتى تتم امتحانك .

فرد عليه فى حياء :

— متشكر .. لكن أبى سلمنى له .

فقال مداورا :

— معلهش .. آ .. آ .. إن فى بيوتهم ضيوفا كثيرين . أما نحن .. فبيتنا واسع .

وأخذ الترام يشق به شوارع الإسكندرية للمرة الأولى وهو صامت . لم يحاول أن يكلم الطالب ، لأنه لا يدرى ماذا يقال ، ولم يكن الإحراج باديا على وجهه بل .. كانت هناك دلائل رضا معقول .. غير أنه رأى أنه من الضرورى أن يسأل :

— هل أعطاك الحاج .. نقودى ؟

— نقودك ؟!. لا .

— هل تعرف عنوانه ؟!.

— عنوانه ؟! لا .. حتى لم يقل لى عليه . (صمت) ولكن .. لا تخف .. إنه يعرف عنوانى .. وربما مر علينا فى سكننا .

***

وماذا كان سكنهم ؟ شقة تموج بالطلبة كل ثلاثة ينامون فى حجرة . على حشايا لا تفرش إلا فى الليل . وجلس يتغذى فى وسطهم تتسلل يده الصغيرة من بين أيديهم الكبيرة تسلل من لا حق له .

وجاء الليل . فبدأ يفكر فى مشكلة النوم . وأخذ يحسب الزمن وهو ينظر إلى مدخنة أحد المصانع فى حى (القبارى) . فأحس أنه ولد منذ خمسين عاما ، منها عشرون فى الإسكندرية . وأخذ الحنين بخناقه فلجأ إلى الخارج .. خاف أن ينزل إلى الحارة فجلس على السلم وأطل إلى القاع حيث الظلام والرطوبة وأخذ يبكى فى صمت وكانت أصوات الطلبة تتناهى إليه من الداخل وهم يتصايحون أو يضحكون . ومل من الجلوس ، فدخل فإذا بهم يشربون شايا ونظر بعضهم إلى بعض .. وفى يد كل واحد منهم كوب .. ولكن الشاب الذى أواه قدم إليه بقية شرابه . فرفض وبكى وكان بكاؤه امتدادا لحالته النفسية منذ الصباح . لكن ذلك أثار ضحك الطلبة . ربما قد ظنوا أنه بكى لإهمالهم إياه . وانزوى فى ركن يحاول أن يجد شيئا يلهيه عن النظر إليهم حتى جاء وقت النوم . فوجد مكانه على حشية الطالب بينه وبين الحائط لكنه لم ينم . فقد عرف طعم الأمان عندما فقده وشعر بإحساس مبهم معهم ينفى النوم عن كل عين . إحساس الراقد فى العراء أو الخفير الذى يحرس كنزا !!.

* * *

وفى الصباح خرجوا وتركوه وحيدا . فأكل وشرب وحملق فى مرآة صغيرة فرأى عينيه فى لون الدم ، وذكر أن غدا موعد « الكشف الطبى » وأن عليه إذن أن يصون عينيه من البكاء . لكن المأزق الذى وضعته فيه الظروف والحنين والوحدة وحداثة السن كانت جميعا ضده .. وعند العصر

كان غير قادر على أن يفتح عينيه .. فتذكر الرمد الذى أصابه من سنتين وكيف أنه عاوده فى وقت غير مناسب .. وفى صباح اليوم الأول والثانى « للكشف الطبى » كان من العسير أن يفتح جفنيه . وكان مستلقيا على حشية على الأرض فى حالة من الاستسلام طغت على شعوره بالألم والحنين والمسئولية . وخلال هذه الأيام جميعا لم ير الحاج إسماعيل ولم يسأل عنه حتى أبلغه الشاب الذى استضافه أن ميعاد « الكشف الطبى » قد فات وأن الحاج عاد إلى القرية مع جثمان قريب له توفى هنا .. فى الإسكندرية .

وضحك الطالب . كأنه تذكر الجثمان الحى الذى نسيه الحاج وسافر .. والمصاعب التى سببها له فعرقل سير حياته ..

وأقبل المساء . واستغرق فى النوم .. وأحس أنه يحلم .. كان الصداع يوقظه والنوم يغلبه . وانتقل الطلبة بعيدا عنه وكانت أصواتهم تتناهى إليه كلما أيقظه الصداع . وحلم أن بينهم صوتا يشبه صوت أبيه .. وعاد فاستغرق ثم أحس كأن نفسا يقترب من خده .. نفسا حارا جدا . كان فى حالة لا يقدر فيها على تمييز ما يدور حوله فقد كان مرهقا ونائما .. لكن النفس لامس خده ثم وقعت ذقن خشنة على خده فنهض جالسا .. وحاول جاهدا فتح عينيه . لكن الرجل أعفاه من العذاب إذ هتف به :

— ابنى !! سلامتك ..

ونسى كل شىء إلا سلامته .. واحتضنه كمن أنقذ غريقا وعرف الابن من لهجة أبيه المرتعشة أنه يبكى .

* * *

كان هذا العام الذى ضاع من عمره عزيزا عليه . غير أنه منحه قدرة على تحمل المصاعب . وإن كان قلبه حتى اليوم لا يزال يخفق كلما رأى قطارا يمر . أو تلميذا صغير السن يطل من نافذة القطار وفى عينيه البريئتين نظرة وداع .

★ ★ ★

وجهاً لوجه

كانت تحاول جاهدة أن تتفاهم مع هذا الذى غشها . إنها تعرفه منذ سكنت فى هذا الحى . بائع اللبن .. هذا الطيب .. الذى تفوح من دكانه روائح تشتهيها النفس . وفى واجهة محله الزجاجية أطباق القشدة المسكرة والمهلبية باستمرار . وكل الناس يثقون فيه ، لكن .. لماذا غشها ؟! هى بالذات . والمؤلم فى الموقف أن أحدا لن يصدقها .. وهى الآن تعذب نفسها إلى درجة لا تحتمل . فهمها للموقف وحدها دون الناس جميعا وهو أنه تستتر بثقة الناس فيه وغشها هذا الغش الفادح .

شعرت أنها جائعة متعبة ساعة استيقظت من النوم عظامها تؤلمها حتى النخاع : « يا الهى .. لم أكن كذلك ليلة أمس فقد عدت من عملى آخر الليل وأنا فى غاية من الصحة والبهجة كذلك . فقد شهدت فيلما أنا وحبيبى .. أضحكنا حتى دمعت عيوننا . لكن .. ما هذا العناء ؟! » .

واتجهت إلى المطبخ المظلم ــ ولو أن الوقت صباح ــ وأشعلت النور ووابور الجاز . ووضعت اللبن على النار حتى غلى ثم أخذته وجلست وحيدة فى الشقة الصغيرة المعزولة وجلست تشرب . وعند الجرعة الأولى أحست كأن التعب غير كل طعم فى فمها . نعم لكنها عاودت الأمر . فما لبثت أن اكتشفت أن الرجل لم يبع لها لبنا بل نوعا من الجير مذابا فى الماء لسع فمها وأحرق لسانها فأسرعت تهبط السلم إليه وغضبها يغلى . على جسمها (روب) والحر شديد وهى تشعر بالبرودة والعرق يتصبب من جبينها وأطرافها ترتعش . والمرئيات أمامها مهزوزة وهى فى طريقها للبان .

وعندما وصلت إلى باب دكانه ألفت أمامه عددا من الزبائن وهو واقف فى جلباب أبيض تبدو على وجهه طمأنينة من لم يعرف الإثم ، فزاد ذلك من حدة غضبها ، ووقفت تصرخ بأعلى صوتها وريقها جاف والعرق على جبينها بارد :

ـــ أنت غشاش .. ليس هذا لبنا !!

ونظر إليها الناس فى ذهول . إن أحدا لا يصدق هذه التهمة . ولوى بعض الواقفين شفته وربتت امرأة على كتفها وهى تقول لها :

ـــ التعب ظاهر عليك !!

فصرخت الفتاة :

ـــ لا . إنه باع لى بدل اللبن جيرا . انظروا . إن فمى ملتهب .. شفتى السفلى قد تورمت . آه .. والعليا بدأت كذلك .. هل خدعكم وجهه الطيب .. إن .. آه .

وتهالكت على كرسى بلا مسند أمام الدكان ، وقد بلغ بها الظمأ حد من ضل فى الصحراء . وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تبكى وكانت بين الوهلة والوهلة ترى منظر البائع من بين أهدابها وهو يرسل إليها نظرة شماتة : شماتة من غشها وحدها دون الناس فكسب الناس فى صفه . وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها وهجمت عليه تريد أن تشفى غليلها وتضربه بشىء ما . وقع بصرها على وعاء نحاسى كبير فأمسكت به فإذا بها تصرخ . كان نازلا من على النار لتوه وأفرغ منه اللبن فأحرق أصابعها . وندت من البائع ضحكة صغيرة نصفها شامت ونصفها مثير وضحك منها الناس : « على الباغى تدور الدوائر » وزاد من عذابها أن أحدا لا يصدق ما بها . لا ألمها النفسى

ولا ألمها الجسمى . فخرجت تتعثر فى الروب وصعدت السلم تلهث . ولما دلفت إلى الصالة وجدت كوب اللبن لا يزال فى مكانه فضربته بكفها فأراقته على الأرض ثم أطرقت على المائدة .. شعرت أن رأسها ملىء بالرصاص .. وأن « هرقل » نفسه لا يقوى على حمله بهذه الصورة . لكنها أحست بالجوع .. جوع وألم فى آن واحد .. إن معدتها تعبر عن وجهى الحياة فهى تحس بالشهية ودبيب المغص . وعادت إليها لقطة من الفيلم المضحك الذى شاهدته مع حبيبها .. « زوجان يتعاركان وهما يأكلان .. فكانت المرأة تأكل ودموعها على خدها . وقال لها حبيبها ساعتئذ :

— إنها تركت أسنانها تؤدى وظيفتها كما تركت عينيها تؤدى وظيفتها » .

وهكذا هى الآن . وتأوهت . ورفعت رأسها ومدت يدها إلى الخبز . وقطعت منه قطعة . أخذت تلوكها فى هدوء كمن يفتش عن فكرة . عيناها شاردتان والصداع يدق . لكنها سرعان ما اكتشفت شيئا أثارها .. إن الخبز مغشوش .. إنه ليس دقيق ذرة ولا قمح ولا أرز .. وبصرف النظر عن الدقيق فإن أسنانها كلها أخذت تنبح .. لقد مضغت رملا . وطعم التراب يملأ فمها .

ووقفت تفكر ، لم تستطع أن تفصل بين الحادثتين .. حادثة اللبن وحادثة الخبز . لأن الطاقة الإنسانية لا تستقبل الحادثة الثانية بنفس اكتمالها الأول ، وشعرت كأنها مضطهدة ، أو على الأقل غير موضع لاحترامها أو كأنها ليست أهلا لأن تنال الحق العادى الذى يناله كل مواطن .

واستحضرت صورة بائع الخبز ، ذلك الرجل الذى يكتسى ملابس

الريف وملامحه فى المدينة . الذى لم يغير لهجته ولا فطرته ولا تقاليده . ذو الوشم على المعصم والصدغين . والمستقيم مثل شعاع الشمس على الحقول .. يغشها هى ؟!.

وكشراع ملأه الهواء تحركت نازلة فالرجل على مقربة من الباب . مشت تتعثر . أطرافها باردة وريقها جاف ورأسها فى ثقل كرة الرصاص . حتى إذا ما وصلت إلى دكانه ألفته واقفا خلف « البنك » يبيع فى هدوء فطرى سليم . لم تزوده الطبيعة بإحدى علامات المراوغة والناس أمام الدكان يأخذون ويعطون لكنها وقفت وصرخت فيه :

ـــ أنت غشاش .. أنت غشاش .. كيف تبيع لى رملا بدل الخبز .. إن أسنانى .. آه ..

ووضعت يدها على فمها كأنها تحجز بين نفسها وبين الألم . ونظر إليها الناس فى ذهول . إن أحدا لا يصدق هذه التهمة . ولوى بعض الواقفين شفته ، وربتت امرأة على كتفها وهى تقول لها :

ـــ التعب ظاهر عليك .

فصرخت الفتاة :

ـــ لا . إنه باع لى رملا .. انظروا .. إن أضراسى تكاد تسقط ولثتى ملتهبة . وشفتى السفلى قد تورمت .. اللبان وبائع الخبز .. معا .. آه .. آى ..

وتهالكت على كرسى بلا مسند أمام الدكان وقد بلغ بها الظمأ حد من ضل فى الصحراء . وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تبكى وكانت بين الوهلة والوهلة ترى ذلك الرجل الريفى الطيب ذا الوشم على المعصم والصدغين ينظر إليها من بين أهدابه نظرة شماتة . شماتة . شماتة من غشها

وحدها دون الناس فكسب الناس فى صفه . وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها وهجمت عليه تريد أن تشفى غليلها وتضربه بشىء ما . وقع بصرها على السكين الذى يقطع به الخبز لمن يريد نصف رغيف فأمسكت به فإذا بها تصرخ . فقد قبضت على نصله بدلا من أن تقبض على يده فغاص فى كفها . وندت من البائع ضحكة صغيرة نصفها شامت ونصفها مثير وضحك منها الناس : « على الباغى تدور الدوائر » وزاد من عذابها أن أحدا لا يصدق ما بها . لا ألمها النفسى ولا ألمها الجسمى . فخرجت تتعثر فى الروب بكف محروقة من النحاس مجروحة من السكين . وصعدت سلم بيتها تلهث . ولما دلفت إلى الصالة وجدت الرغيف لا يزال فى مكانه على المائدة فأمسكته وفتته . مزقته كأنه جلباب ذلك البائع ورمت به إلى الأرض فإذا به يتناثر فى اللبن المراق .. وبعد قليل سمعت مواء قطة عبرت إليها من شباك الحمام عن طريق المسقط وتسللت بخفة خطواتها المخملية ونظراتها الكهرمانية ثم أخذت تأكل الخبز باللبن .

كانت مسندة رأسها إلى المائدة وصوت لعقات القطة الرتيب المتلذذ يصل إلى أذنها كأنه صوت شماتة . فأخذت تتساءل : « وهل تأكل القطة الجبر » .

أخذت الحيرة تدور بها .. كفراشة مرهقة أمام زجاج مقفل . لكنها .. ما لبثت أن أحست بالجوع .. جوع وألم فى آن واحد . معدتها تعبر عن وجهى الحياة فهى تحس بالشهية ودبيب المغص . وعادت إليها اللقطة السابقة من الفيلم الذى شهدته هى وحبيبها ليلة أمس .. ثم أحست كأن يده تدب إلى فخذها فى الظلام ..

بادرتها رائحة لذيذة . وصلت إليها .. صافحت أنفها ثم غابت . كبقية عطر فى منديل مغسول .

ثم ما لبثت أن انغمست فى آلامها .. إن معدتها تتقلص .. كل شىء يؤذنها بالخطر . وهى وحيدة فى الشقة . وكان عليها أن تبلغ رئيستها فى المستشفى الحكومى الذى تعمل حكيمة فيه .. عليها أن تبلغها أنها مريضة . هناك أشياء لا تقبل التأجيل . لكن .. لم يعد فى استطاعتها أن تنزل . حتى لتتصل بالتليفون ..

وتذكرت علبة الدواء الذى تأخذه عادة عندما تهاجمها هذه النوبات فقامت إليها .. كانت جديدة . رفعت ورقها الشفاف ثم حركت الغطاء فانفتح فاذا بداخل العلبة شىء غريب . أقراص بدل الحبوب . وهى لصلتها بالطب لا يمكن أن يغيب عنها هذا . وفاح من العلبة رائحة نفاذة .. رائحة يعرفها الطفل .. إنها رائحة نعناع .. ولكنها لم تصدق نفسها فقطمت وذاقت فإذا بالوهم حقيقة لا تقبل الجدل ..

وعندئذ أحست بقواها تخور : « حتى الدواء !! هذا مريع » كم تود أن تنزل إلى ذلك الصيدلى لتفضحه على قارعة الطريق ؟! لكنها عاجزة تماما عن جر ساقيها . كان أولى من ذلك أن تعتذر للمستشفى عن الحضور .. رأسها من الرصاص .. وعرقها بارد ..

غير أن الغضب عصف بها فمنحها قوة عصبية . فهبطت السلم وهى بنفس الملابس . الروب يلف على ساقيها والحر شديد والمرئيات أمامها مهزوزة وهى فى طريقها إلى الصيدلى .

وعندما وصلت إلى هناك وجدته واقفا أمام أحد الدواليب فى معطف أبيض مثل ورقة السوسن . على وجهه جد العلماء واستقامة من يأتمنه الناس على حياتهم . وناس يأخذون ويعطون . لكنها دلفت إليه وصرخت فيه :

ــ أنت غشاش .. أنت غشاش .. تفرغ العلبة من الدواء وتضع فيها أقراصا من النعناع ؟!

ونظر إليها الناس فى ذهول . إن أحدا لا يصدق هذه التهمة . ولوى بعض الواقفين شفته وربتت إمرأة على كتفها وهى تقول لها :

ـــ التعب ظاهر عليك !!

فصرخت الفتاة :

ـــ لا . إنه باع لى نعناعا بدل الدواء الغالى .. الغالى الغالى .. آه .. شفتى ملتهبة .. ويدى محروقة ومجروحة .. وأسنانى تؤلمنى هل خدعكم وجهه الطيب .. آه .. أى ..

وتهالكت على كرسى بلا مسند فى الصيدلية وأسندت رأسها إلى دولاب . وبين الوهلة والوهلة كانت ترى منظر الصيدلى وهو يرسل إليها بنظرة شماتة . شماتة من غشها وحدها دون الناس فكسب الناس فى صفة .

وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها ودلفت إلى الداخل .. حيث وجدت زجاجة مليئة بحامض .. كانت تريد أن تقذفه بها .. تريد أن تقتله ..

لكن الناس تجمهروا وأمسكوا بيديها ... وقادوها إلى الخارج حيث أجلسوها على كرسى ، وقدموا لها كوبا من الماء المثلج .

* * *

أحست أن ريقها ابتل هذه المرة . كأنما نقعت هذه الشربة كل عطشها ... النار التى فى صدرها بدأت تبرد . وكانت مسبلة أجفانها فسمعت صوتا نسويا عذبا هو صوت المرأة التى سقتها تقول لها :

ـــ هنيئا !!

فتحت عينيها فإذا بها تعرفها .. إنها زميلتها الممرضة معها فى مستشفى الحميات حيث يعملان معا . لم تكن فى الصيدلية حيث خيل إليها أن هذه

لو عرف قلبى طريــق الحب
ما فعلت كل هذا .. دعينى أنام

الحوادث تدور . بل كانت راقدة فى سرير المرض محمومة .

وابتسمت لزميلتها وردت بصوت واهن :

ــ هناك الله !! مالى يا درية .. آه .. أنا نسيت نسيت أننى هنا . فى المستشفى الذى أعمل فيه حكيمة . آه .. يا له من عذاب .. الغش .. الغش .

ضحكت زميلتها :

ــ أقسم لك بالله أنى ما غششتك . لقد أعطيتك كل الأدوية التى كتبها لك الأطباء ، ولذلك تماثلت سريعا للشفاء . لم أنقص و لم أبدل وليس هذا من طبعى كما تعرفين .. تعرفين أننى أخاف الله .. وحتى على الأقل أحترم ضعف الإنسان ..

وعادت تضحك . شعرت المريضة أنها كانت مولودة ، و لم تسمع ضحكة على الأرض . هذه أول مرة . نظرت إلى زميلتها وعادت تهمس :

ــ الغش..عرفته..قابلته وجها لوجه . فى الخبز واللبن والدواء . وذقت بسببه العذاب . غشونى وحدى . عرفت معنى ما فعلت .. معنى سلب الدواء من المريض وأنا فى هذا الفراش يا صديقتى .. تبت !!

ردت زميلتها مداعبة :

ــ تبت عن الحب ؟

همست وكفها على رأسها فى موضع الصداع :

ــ لا . لو عرف قلبى طريق الحب ما فعلت كل هذا .. آه .. دعينى أنام !!

★★★

يوم الحصاد

يوم أن رأى جماعة من الصبيان يرجمون هذه النخلة بالطوب ليسقطوا من عليها البلح .

ويوم أن جرى وراءهم مطاردا لهم صراخهم يتقدمهم وغبار الطريق يتبعهم ، وفى رأس أحدهم جرح صغير .

ويوم أن صعدها للمرة الأولى فى حياته فبدت له الأرض أما عزيزة بعيدة مع أنه لم يرتفع عنها أكثر من خمسة أمتار . وتصور ساعتئذ أن قوة خفية لا تقاوم تشده إلى أسفل بذراعين لا تعرفان التردد فسارع بالنزول قبل أن يسقط من فوق النخلة .

ويوم صعدها كلها بمهارة وأخذ يتأمل العراجين عن قرب .. بعين هؤلاء الصبية على الأرض . هؤلاء الذين يحلقون بأرواحهم حول الطيور ويخاطبون العصافير والغربان مناشدين أن تسقط لهم من ثمرها شيئا .. وفى المرة الأولى هذه لم تشغله الثمار كثيرا وإنما شغله منظر الأرض . حين بحث عن موقع دارهم بين الدور .. هذه التى بدت سمراء قميئة يغطيها الحطب ، والتى يقع عليها أعلى أبراج حمام فى القرية .

وخيل إليه فى المرة الأولى أنه إنسان أعلى من الإنسان . أحس بنفحات متتابعة كترادف الموج فيها الخيلاء والروحانية والقوة . وبدت له سرعة الناس وأحجامهم أقل من المألوف ثم ما لبث أن شعر بقشعريرة تغمر بدنه .. حين تصور أن الحزام الذى يشده إلى جذع النخلة قد انقطع به فهوى من حالق ...

ويوم صعدها ورأى الدخان يتصاعد من معظم الدور يوم السوق يوم تحمل الكوانين قدور اللحم بالتوابل وتنعقد على السطوح البنية غلالات من دخان الطبخ ويعود الفلاحون من الحقول مبكرين نوعا ما فتلقاهم عند مدخل

كل دار روائح العشاء الساخن .

لكن هذه النخلة أصبحت مصدر متاعب له . فهى ذات نوع من البلح نادر الوجود فى القرية وهى وحيدة وبجنبها نخلة وليدة لم يحن وقت إثمارها بعد . وقد تربص بها جماعة من الصبيان . ينهضون إليها مبكرين ليسقطوا بلحها بالحجارة وقد يزورونها وقت الظهيرة متخذين من بعدها عن القرية نوعا ما واستقلالها بين الحقول فرصة مواتية لإسقاط ما يريدون .

وهو لذلك لا ينسى المطاردات المتعددة لهم ولا يوم أن جرح رأس جابر ابن الحداد حين رماه بحجر صغير ثم اشتبك معه الحداد فى عراك وتجمع حولهم الناس يلومون أو يهدئون أو يصلحون .

وكانت هذه الحادثة الأخيرة عصر هذا اليوم فعاد إلى داره بنفس قد امتلأت غيظا . ولما علمت زوجته بالخبر أخذت تلومه ثم ذكرته بما كان يصنع وهو صغير وحكت له عما كانت تعانيه حينما ترى عناقيد البلح على النخيل فتحس أنها فى ارتفاعها لابد أن تكون شيئا مختلف المذاق،وكم نازعتها نفسها وغلبتها فرجمت النخيل بالحجارة .

لكنه على الرغم من كل هذا نام وهو مصمم على عمل . على أن يقطع العراجين ويعلقها فى سقف الدار وإن لم تكن قد بلغت غايتها من النضج فخير له وهذه حالها من أن يدعها لأيدى الصبيان والحجارة .

وبات طوال هذه الليلة يحلم أحلاما مختلفة . أحلام رجل تأبى نفسه أن تتنازل عن بلحة لطفل حتى ولو كان بلغ هذا الطفل من حداثة السن وقوة التطلع حد أن يتوسل إلى الغراب أن يسقط له بلحة كما يفعل كل أطفال الريف .

بات يحلم أن أحدهم صعد إلى فوق فلسعت وجهه (الضبابير) فنزل يصرخ ورآه هو فسخر منه . ومرة يحلم أن الحجر ارتد إلى رأس طفل رماه

فسال دمه وسخر هو منه . ومرة يحلم أنه يصعد النخلة ليجز عراجينها ففوجئ بأنها تطول مترا كلما صعد على جذعها مترا حتى إذا ما نظر من فوقها إلى الأرض رأى ارتفاعا شاهقا والناس فى حجم الدجاج والبيوت فى حجم الصناديق والترع مثل شريط من الورق المفضض ففزع من نومه خائفا ثم عاد فاستأنف النوم ..

لكنه على كل حال صمم على أن يجز العراجين بما عليها من بلح وها هو فى الطريق إليها ظهر اليوم فى يده سلة فيها أدوات الحصاد ويتلفت حوله فى فضول فلا يكاد يرى أحدا .

واليوم شديد الحر من أخريات أغسطس وأعواد الذرة الصيفية حولت الحقول إلى غابات شديدة الخضرة عميقة السكون وتراب الأرض سخنته الشمس ، وهدأة الوقت تبشره بحصاد هادئ .

وعندما انتهى إلى يمينه امتداد حقول الذرة وبدا الطريق أكثر استنارة كان إلى يمينه حقول زرعت قطنا وإلى يساره على الطريق مجرى ماء تكاثرت على شاطئيه أعواد الغاب . فأحس بحاجة إلى الغناء .. إلى أن يسمع صوت نفسه .

ثم ما لبث حقله أن لاح له . فى مدخله تلك النخلة الثقيلة الحمل ومن أصل جذعها نبتت بنت لها ، ويكوّن الأصل مع الفرع زاوية حادة اتخذ الصبيان منها ملعبا ظليلا عدة مرات .

لكنه اليوم لا يرى تحت النخلة أحدا . وقف ورفع رأسه إلى أعلى . كان السعف ساكنا وحقول القطن من حوله لم يبدأ فى حصادها بعد .. ورأى الارتفاع الشاهق والعراجين المرصوصة والسماء الصافية . ثم ما لبث بصره أن نزل إلى الأرض . خلع جلبابه وبقى بالملابس الضيقة التحتانية وشد حبل الصعود إلى وسطه ثم لفه على جذع النخلة فبدا هو وهى مربوطين بحبل واحد . وأخذ يصعد وهو يدندن .. سعيدا مسرورا . فلن يكون هناك بعد

ولا رأس جابر ابـــن الحداد
الذى رمـاه بحجـر صغير ..

الآن من يمد يده إلى ثمراته .. ماذا عليه لو قطفها غير كاملة النضج وعندما يعلق العراجين فى سقف إحدى الحجرات سترطب كأنها لا تزال على أمها النخلة .

وأخذت أطراف قدميه من الأمام تتداولان الصعود . على ذلك السلم الخطر الذى صنعه قطع الجريد عن النخلة .. على التعرجات التى تذكر العين بمنظر شريط من الرمل انحسر عنه الموج .

الأرض تبتعد عنه والسماء لا تقرب منه .. يا إلهى .. ومنظر الحقول رائع ساكن .. كسجادة خضراء وأخرى ملأتها الزهور البيضاء تلك هى لوزات القطن .

وعلى مقربة من العراجين توقف ثم نظر إلى الأرض وتبسم . أحس بنفس تلك الموجات ليده المتتابعة التى تشبه ترادف الموج .. خيلاء وروحانية وقوة . ثم صعد قليلا ما حتى صارت العراجين أسفل منه وألقى نظرة على الجريد المتكاثر واستل سكينة وأخذ يجز وسقط الجريد على الأرض واحتك بالعراجين فسقط معه بعض البلح وعندئذ توقف وأخذ ينظر إلى الأرض و لم يفطن إلى أن هناك ثلاثة من الصبيان على رأسهم جابر ابن الحداد كانوا متوارين فى ظلال البوص يرقبون حركة الرجل . كانوا قد سبقوه فلما لحقهم ورأوه من بعيد تواروا عن عينيه ، وجلسوا فى مخبئهم ينتظرون الفرصة لكنهم رأوها بعيدة المنال أما هو فقد استمر فى عمله . أخذ يجز الجريد المتكاثر على مقربة من العراجين والجريد يتساقط ، لكنه بعد قليل توقف خائفا مرتاعا مقطوع النفس يمسك نفسه بحبل الصعود حتى لا يسقط من الخوف .

كان عليه أن ينتظر فى هدوء حتى يرى ما سيئول إليه الموقف ثم يصرخ بعد ذلك . لكنه أدرك أن الصراخ لن يجدى شيئا . فقد أصبح الطريق مقطوعا عليه . محاصرا لا يستطيع النزول إلى الأرض و كل دقيقة تمر تدنيه من الهلاك

المحقق .

كانت العراجين على مقربة من رجليه المرتعشتين والسماء تبدو له من خلال السعف . وعندئذ دعا الله ..

وأحس بالخجل وهو يبتهل . وكأنه يسمع قهقهات صغيرة منبعثة من الأرض أعلى قهقهة فيها هى قهقهة جابر ابن الحداد الذى شج رأسه من أجل بلحة ، وتعارك معه أبوه ولامته فى سبيله زوجته ولم يلم نفسه بل سارع بجمع الثمار قبل الأوان . وها هو ذا غراب يحوم على القرب منه فسمع أصواتا أربعة من بينها صوت جابر تنادى الطائر بأن يرمى لهم بلحا من فوق وعندئذ هتف الرجل : « تعالوا أيها الأولاد .. تعالوا .. خذوا بلحا .. تعالوا » . كان صوته عاليا صريحا وأخذ يهز العراجين برجله فيتساقط ما عليها . وجرى الأولاد يهللون به والسماء تمطر بلحا . كان كل شيء هين .. وود هذه اللحظة لو احتواهم جميعا وقبل أفواههم وهي مليئة بالثمار .

لكن ما لبث أن لفت نظرهم إلى الخطر الذى يتهدده وعلى مقربة منهم ولكنهم لم يروه ..

كان يهتف بصوت خائف باك عجب منه الصبيان :

— « أفعى .. أفعى .. أفعى » .

ونظر إليها الأولاد مرتاعين . رأوها طوقا ملفوفا حول جذع النخلة على بعد ثلاثة أمتار من الأرض وعليها ظل النخلة الصغرى فبدت شبه مخدورة والرجل محاصر فوق .. رآها أول الأمر وقد خرجت تسعى حثيثا إلى تحت من قلب النخلة حين كان يبحث عن الجمار . فخرجت من قلبه . لعلها كانت فى وكرها أو كانت تتصيد أفراخا أو تأكل من الثمار فوق النخلة .

وشل الخوف حركة الرجل فإن عادت قتلته وإن نزلت احتك بها . وهو والنخلة الآن جسم واحد . حبل الصعود يجمعهما والموت على بعد أمتار منه .

وهتف جابر ابن الحداد بأعلى صوته :

— « لا تخف سأعود إليك » .

ثم جرى .. صبى فى الثامنة من عمره حليق الرأس واسع الفم مبحوح الصوت . جرى بسرعة وفى يده جريدة من تلك التى سقطت من النخلة ثم ما لبث أن عاد .

لم يغب كثيرا عنه لكن هذه الدقائق كانت أشبه بدهر طويل . الأرض تحته ضباب والسماء فوقه قبة مقفلة الأبواب . يخشى الله ألا يسمع دعاءه لأنه لم يحبه فى خلقه .

وعاد الصبى وخلفه أبوه ومعهم تلك الجريدة التى تحولت إلى عصا طويلة ربط فيها جابر وأبوه قضيبا من الحديد المحمى بالنار كان أشبه بالجمر ورفعوه إلى فوق وتسلق الرجل النخلة الصغيرة من الناحية التى يمكن أن يفاجئ منها عدوه .. من حيث لا تراه الأفعى ثم وضع على جسمها القضيب المحمى وضغط فأخذت تتلوى لتلف نفسها تماما حول القضيب الساخن .

وعندئذ رمى الحداد سلاحه بكل ما عليه إلى الأرض حيث أجهز عليها الصبيان . .

وصاحب النخلة فوق لا يصدق ما يرى .. لكنه بعد قليل سمع نداءهم له :

« انزل .. انزل فالطريق أمان » .

لكنه صعد .. ونظر إلى السماء فإذا بها ذات ضوء جديد كأنها استنارت بنور الفجر ، والأرض تحته ليس عليها ضباب ، وكأن النخلة قصيرة جدا يرى تحتها كل شيء .

غير أنه صعد حتى وقف على العراجين وأخذ يهزها بقدمه فتساقط الثمر الناضج وهو يقول لمن على الأرض :

— « كلوا ولا تخافوا .. كلوا .. ولا تخافوا » .

المخـــدع

(حافة الجريمة)

كتب إليها بعد تسلمه عمله فى هذا البندر الصغير يصف لها الليلة الأولى من إقامته فى هذا البلد الواقع فى أطراف الدلتا على حدود الصحراء .

« مركز » عادى أو أقل من العادى إلى حد ما . يقع على شريط السكة الحديد شمالى « مديرية التحرير » .

وكان فرحا بترقيته : و لم تكن فرحته إلا للمعنى الأدبى الذى حصل عليه ولأن زوجته ستصبح هى الأخرى منغمسة فى هذا الشعور . فهو سيصبح ناظر المدرسة الإعدادية فى هذ المركز ولعله أصغر ناظر فى الجيل .. تخيل زملائه وخلانه . وشعر أنه نال ثلاثة أشياء فى وقت واحد : رياسة ، ونقلة ، ثم .. زواج .

كان القطار يتلكأ به عبر الصحراء بطريقة غير مبالية . قطار ركاب من المفروض أن يصل به قبل حلول المساء حيث يقضى الليلة الأولى التى كتب إليها بتفاصيل وقائعها الطريفة . ولذ له أن يشاهد هذا الطريق الغريب عنه الذى لم يعبره قبل ذلك مرة واحدة . بمحطاته المتقاربة وأسمائها الغريبة . وعند وصول القطار إلى محطة .. (إنه لم يعد يذكر اسمها) فقد وقف القطار فيها ثم غادرها ثم وقف على بعد بضع عشرات من الأمتار عندما تلقى ناظر المحطة إشارة بحجز قطار الركاب هذا لأن إحدى عربات قطار بضاعة جنحت على الخط .. الطريق المفرد .. فتأوه كثير من الركاب وتمطى بعضهم وقال أحد الذين تعودوا مثل هذه الحوادث وهو يتخذ من حائط العربة مسندا لرأسه :

« يحيا النوم لثانى يوم » ..

كان الجو خريفا والنهار قصير الطول والشمس تبدو من زجاج النافذة المقفل نحو الغرب على مسيرة نصف ساعة من رحلتها اليومية . فشغله حسن

المنظر عن حقيقة الورطة . لم ير فى هذا الذى حدث إلا شيئا طريفا . مفاجأة ذات هزة حلوة تبعث الضحك والخوف مثل تلك التى تعمل فى الحفلات بين الأصدقاء . فتشاغل بمنظر الظلال على التلال والخيوط الذهبية التى فصلتها الشمس أثوابا محبوكة على الكثبان التي تغنى بها شعراء البادية قديما وربطوا بينها وبين أجمل ما فى أجسام النساء .

وأخذ يتحسس جيوبه فى حركة نصف واعية . حركة الجالس الذى تصلبت عضلاته فهو يريد أن ينشطها . فأخرج سيجارة وأشعلها ثم .. محفظته الجلدية وجعل يفحص أوراقه القديمة التى فيها . فوجد عنوانا لشخص التقى به فى الترام تعرف عليه وتبادلا عهودا بالتزاور . ثم نسى كل عهده . وإيصالا من أحد التجار بمبلغ كان دينا عليه . وصورة لأخيه . وصورة لصديقه .. ثم صورة لعروسه هذه التى لم تزف إليه بعد فابتسم .. « زوجة الناظر .. ما أعظم أن يزورها زوجات المدرسين فى كل ليلة جمعة ويراها وهى تودعهن عند السلم وتقف لتثرثر على طريقة النساء وقد أخفت بمهارة كبرياء زوجة من هو رئيس لأزواجهن !! » .

وشعر أنه يريد أن يقهقه من دغدغة هذا الخاطر له . وشعاع غربى يقع على كتفه الممسكة بالصورة فتشعشعت به كأن هالة علوية وقعت على وجهها الحلو . وخيل إليه أنها تبتسم له . وتذكر أغنية كان يحبها . كانت تصل إليه من راديو مجهول على بعد ساحق فلا يصل الصوت إليه إلا وقد فقد كل حدة واحتفظ فقط بشحنة الهمس وسره وسحره . ومن خلال شفتى الصورة خيل إليه أنه يسمع الصوت .. فكأنها تغنى له .

ولم يلبث أن وضع كل هذا وأمسك بورقة أخرى . فيها عنوان .. عنوان لوكاندة صغيرة وحيدة لرجل يونانى فى المركز الذى يقصده أخذه من صديق عن طريق صديق هو من أهل المركز . وأخذ يقرأ العنوان « لوكاندة الهناء »

.. « ما أجمل حجرة بسرير واحد تطل على مئذنة المسجد حيث يسمع الصوت الندى لمؤذن كفيف » .

واستراح لهذه الخواطر . لم يعد يذكر شيئا عن القطار أهو ثابت أو متحرك . لكنه جعل يستعرض ما يعلم عن المكان الذى هو فى الطريق إليه . وكل ما اختزن عن عروسه الجميلة .

ولاحت نظرة الكثبان فرأى قرص الشمس فى موكبها الذهبى يحث الخطا بين كثيبين ثم ما لبثت أن غابت . فمدد أحد الركاب ساقيه وتأوه.ونظر من خلال الزجاج إلى النهار الذى ولى وهمس لنفسه كأنه فقد الأمل فى تحرك القطار ثانيا : « ليلة عتمة » لكن هذا التشاؤم أضحك « الناظر » الذى أخذ يختلس إليه النظر من خلال أفراح نفسه : « أليس جائزا أن يكون هذا الشاب مدرسا .. فى مدرسة إعدادية .. وربما تحت نظارتى » وهز كتفه : « كله جائز » ..

لكن الوقت يمر والقطار محجوز . فجلس يتأمل العالم الخارجى بعدما شبع من عالمه هو .. عالمه الداخلى العذب الملىء بالغموض الساحر . ففتح النافذة وشم رائحة الصحراء . واستمع لصمت الليل ممزوجا بأغنية ريفية من راكب العربة الأخيرة . ولم يكن فى استطاعة شىء ما أن يدخل على نفسه التعاسة . كان لابد أن تفرغ أولا من حبورها فالملآن لا يملأ . ولم يكن هناك موضع لقطرة جديدة . كل هذا كتب به إليها فى الرسالة الأولى عقب تعرفه على ما حوله . فجلس يخط إليها رسالته كأنه يهمس إليها بالحديث .

« وعندما صفر القطار يا حبيبتى وتحرك شعر الركاب كأنها هزة البعث .. بعث من غير حساب كأننا مدعوون جميعا لدخول الجنة » .

***

وعندما وصل إلى المحطة المطلوبة كان الوقت قد قارب منتصف الليل . وهبط التل العالى الذى تقع المحطة عليه آخذا طريقه ككل غريب . وأحس باللهفة والغموض والخوف والفرح . ورائحة بقايا « سوق » تفوح من الشارع الصامت . عطن وزفارة ورائحة طيور . وأشجار وحشية تلقى بظل متحرك مع نسيم أكتوبر .

ورأى هناك على مسيرة بضع عشرات من الأمتار أحد رجال الشرطة يمشى الهوينا أمام مكتب البريد المغلق فألقى عليه تحية المساء وسأله عن « لوكاندة الهناء » .

— لوكاندة الهناء ؟!.. لوكاندة إيه ؟! ..

وكان الشرطى ممسكا بغضروف أذنه .. أذن نفسه بالطريقة التى تدل على حرص السامع على الاستماع . فقال « الناظر » :

— نعم .. نعم .. لوكاندة الهناء . هل هناك أحسن منها ؟!

وعند ذلك قهقه الشرطى . ضحكة طليقة فى الليل النائم . ضحكة أخرجت الرجل من عميق أحلامه وسمحت للخوف أن يدب إلى قلبه . فوقف يتهته .. يقول ولا يقول .. وعندئذ شرح له الشرطى حقيقة الموقف . فقد كان هناك حقيقة لوكاندة بهذا الاسم . حجرتان من شقة إغريقى عازب توفاه الله فى الأسبوع الماضى . وليس فى البلد سوى المساكن .

ساد الصمت .. أشبه بالذى يغطى الوجوه وهى تنتظر كلمة « آلو » على الطرف الآخر من التليفون . نطق بعده الناظر سائلا :

— وأين يمكن أن أنام ؟!

تلعثم الشرطى لأنه أصبح فى موقف حرج . حراسة إنسان وتحقيق الأمان له . رد متلعثما :

— آ .. آى .. ممكن أقول تفضل عندى .

ـــ متشكر .. أظن هذا ليس معقولا .

ـــ آ .. اى .. آ ..

ـــ أنا ناظر المدرسة الإعدادية الجديدة .

فتهلل وجه الشرطى : « لو رأيته يا حبيبتى وهو واقف فى النور الخافت ووراءه الباب المصمت المتين لمكتب البريد . كان على وشك يحرك بندقيته ليؤدى بها تحية عسكرية لى عندما علم أنى ناظر المدرسة الإعدادية الجديدة التى فيها ابنه . وأخرج علبة السجاير وأشعل لى سيجارة باحترام حتى كاد يحرق أنامله ثم أخذنى وسار بى . أمسك بذراعى كأنه يخاف على من مجهول وسرنا » .

صعدا معا المرتفع الذى تقع عليه محطة السكة الحديد وسارا تطقطق أحذيتهم على بلاط الأسمنت الكبير . وعند المبنى المكون من حجرتين مظلمتين ومخزن دق الشرطى بحذائه وكعب بندقيته على الباب وهو يهتف باسم رجل . استيقظ من بين أكداس البضائع وخرج خائفا . فأخذ الشرطى منه مفتاح حجرة الاستراحة وشمعة وذهبا إليها .

وكان رقاد الناظر حتى الصباح هناك على دكة من الخشب وفى النافذة المغلقة كانت الشمعة تذوب . وحيدة فى الحجرة العالية العارية الأرضية . وفى الخارج نسيم أرعن يلعب بذوائب شجرة : « كنت مستلقيا على ظهرى سعيدا بهذه الوحدة والتجربة والغموض أفكر فيك يا سوسن . ويخيل إلى أنك ستطرقين الباب كطيف إلهى . ثم تقرقرين بضحكة حيية لكنها تسقى قلبى .. وكان هناك فأر يقرض شيئا ما خارج الحجرة كمبرد لا يعرف الملل . وعند الفجر استيقظت على الصوت الندى من المئذنة القريبة فقمت أنظر إلى النهار من النافذة » .

* * *

على أن موعد الزفاف لم يكن باقيا عليه سوى أسبوعين بعد تسلمه عمله كناظر للمدرسة .

وعند مدخل البلدة كانت غابة من النخيل يفصلها الطريق الزراعى عن الحقول والمستشفى . وعلى مقربة من غابة النخيل فضاء يلعب فيه شبان الحى كرة القدم ثم منزل من طبقة واحدة وأربع حجرات وحديقة برية زرع فيها كل شيء كما اتفق .. لوف ولبلاب وخروع ودفلى وأشجار ليمون ليس فيها إلا الشوك .. وجرجير تفوح راحته العطرية الحريفة فى مدخل البيت كعلامة لا تتغير : « لو رأيت الجنة الصغيرة يا عزيزتى . ستطل حجرة نومنا على شجرة الدفلى ذات الأزهار الوردية والأوراق التى تشبه السيف . عيب المنزل أن الفضاء الذى يحيط به فضاء مباح .. أجرته بعد يومين نزلتهما ضيفا على أحد المدرسين العزاب . وقد وجدت لوحا من الزجاج مكسورا من الكرة التى ارتطمت بالنافذة ذات يوم وأنا نائم . لكن لا بأس . فعندما يعلمون أن الناظر هو الذى سكن هذا البيت سيحتشمون لأن فيهم تلاميذ كثيرين . لابد من حضور الأثاث قبل الزفاف ببضعة أيام لأشعر أنك معى ولو كنت وحيدا » .

* * *

وعندما وصل إلى المدرسة بعد سكنه بيومين أو ثلاثة كان اللقاء العادى بينه وبين المدرسين . وتحيات الصباح . وفى الفسح والدقائق الخمس كان هناك على التوالى هذه الكلمات :

قال له الأستاذ عبد الوهاب مدرس اللغة العربية :

ـــ هل أنت مسرور من مسكنك الجديد يا حضرة الناظر ؟

فرد وهو يوقع بعض الأوراق وبشرود :

ـــ جدا ...

فهمهم الأستاذ :

ـــ الحمد لله ..

وسأله الأستاذ بسطا مدرس الرياضة :

ـــ كيف حال البيت الجديد يا حضرة الناظر ؟

فرد عليه وهو يراجع جدول الحصص العام :

ـــ رضا .

فهمهم الأستاذ :

ـــ الرضا من الرضا .

ثم سأله الأستاذ الطويل مدرس التاريخ والجغرافيا :

ـــ هل أعجبك جو المسكن يا حضرة الناظر ؟!

فرد عليه وعيناه معلقتان بالشرارة والنار فى ولاعة السجاير :

ـــ جنة .

فهمهم الأستاذ :

ـــ تنقصها الحورية .. لكن .. آ .. غدا تأتى .

ثم ضحك فى ارتباك وخجل .

وها هى ذى الحورية قد أتت . ومر على الزواج أسبوع . يجلسان فى الغرفة القبلية التى فيها المخدع ويطفئان النور ما عدا المصباح المعلق فى الصالة الذى يبعث إليها بشعاع هادئ . ويتحدثان ويلقيان بنظرهما من خلال أغصان الحديقة البرية إلى غابة النخيل نحو الجنوب . وقد بدت رقعة الأرض الفضاء غير المحدودة المهملة التى يستغلها الشبان فى لعب كرة القدم .. بدت كميدان معركة عراه الصمت . كأنما امتص النخيل والحقول بقية الضجيج . وكان الزوجان يتحدثان عما ينبغى أن يقدم غدا (الخميس) للضيوف المهنئين وبعض زوجات المدرسين سيحضرون للتهنئة . وستفرجهن على الهدايـا

والألطاف وكل النفائس .. تلك السيدة .. زوجة الناظر .

وتخيلها وهى تودعهن عند الباب وقد وقفت تخفى كبرياء لم تشب بعد عن الطوق وتعد برد الزيارة .

وكان ذلك فعلا فى المساء التالى . وانصرف بعض الضيوف . ثم دخلت العروس على زوجها . جلست على كرسى مرآة الزينة تعيد تسريح شعرها ولكن وجهها كان متغيرا . يبدو عليها ما يمكن أن يسمى تعبا أو قلقا أو خوفا . تكثر من التلفت والحديث . وتشعل النور فى كل مكان . أما هو فقد كان ممددا فى الفراش مرهفا سمعه إلى صوت الهواء فى الخارج وأزيز محرك لإحدى السيارات التى ترحل فى آخر السهرة . وقالت العروس بلهفة :

— عبده .

— نعم .

— إن زوجة الأستاذ الطويل قالت لى كلاما ضايقنى .

فرد مداعبا :

— وأنت عروسة . له الويل هذا المدرس من حضرة الناظر ما دامت (حرمه) قد ضايقت (عقيلة) الناظر .

وأخذ يقهقه . لكن المشكلة بدت أعمق مما تصور هو فقد همست سوسن وهى تلوذ بأحضانه قائلة : « إن هذا المسكن هو البيت الوحيد الذى بنى فى هذه الأرض الفضاء . و لم تكن هذه الأرض سوى مستنقع ردم بركام مقبرة قديمة .. موضعها عند الضريح .. آه .. هل رأيت .. لابد من الانتقال إلى سكن آخر » ..

فأخذها فى حضنه كأنها طفلة . وأخذ يقول بهدوء كصوت الرقية .

— علمت هذا قبلك . نعم ... كما تقولين ... لم يسكنه أحد قبلنا .. لكن صاحبه سكنه مدة من الزمن .. نعم .. كلنا نلهو ولا ندرى ماذا تحت

أقدامنا . وهؤلاء الشبان الذين يلعبون الكرة يدوسون على .. ماذا أقول ؟!. ذلك واضح .. لكن إن شجرة الدفلى التى تحت نافذتنا أزهارها الغنية فى لون الورد . هذا ما أراه فقط لا غير .. ولاعبو الكرة كل أصيل هناك لا يذكرون إلا إصابة (الهدف) .. آه .. يجب أن تفهمى .. فقد أثار سؤال المدرسين شكوكى .. لكن .. إن مخدع العروس فى هذا البيت أشبه بحفلات الانتصار بعد الحرب .. إن الحياة تلعب لعبة الشمعة التى كنا نلعبها فى ليالى رمضان .. فحين تنتهى الشمعة نأخذ ذوبها ونعيد صبها ونضع لها شريطا جديدا .. ونشعلها .. نأخذ الحى من الميت والنور من الظلام .. هكذا هى .. ماذا يمكن أن يحدث حين يكمن المحاربون فى المقابر المهجورة ويطلقون النار على قافلة تعبر الطريق .. لا تخافى .. فغدا أزرع لك شجرة برتقال فى هذه الحديقة وسأبخر أشجار الليمون . هل رفضت الحديقة أن تخرج نباتها من أجل الموتى .. بتاتا .. وكثير من العشاق يلوذون بالمقابر .. دفعة الحياة تكتسح كل سد .. على أننا لن نقترف ذنبا .. نحن نزرع الحياة فى رقعة بعيدة .. هل كانت هذه البقعة تحلم بأن تكون مخدع عروس .. لكن .. لماذا نغالى .. إنها أخرجت الأزهار والفاكهة ولعب الشبان فيها الكرة وسجلوا هزائم وانتصارات .. هل غلبك النوم ؟! تبتسمين ؟!. حسنا .. شفتاك فى لون براعم الورد .. إن الحياة تلعب لعبة الشمعة . كما كنا نفعل بشموع رمضان .. نعيد صبها وهى تعيد صبنا .. الحى من الميت والنور من الظلام .. هذه هى الطمأنينة قد بدت عليك .. هل تسمعين غناء هذا الطائر .. أهو فى النخيل أو على شجرة التوت .. خمنى ؟!.

همست :

— على شجرة التوت .. آه .. لا .. أقرب .. إنه على إحدى أشجار الحديقة .. لا .. أقرب .. أسمعه هنا .

لا تخافى .. إنها أخرجت الأزهار والفاكهة ..

ـــ فى الحجرة ؟!

ـــ لا .. هنا .. هنا ..

وأشارت إلى صدرها ..

واحتضنها . وبدت تتأكد أن الحياة أقوى من أن يعترضها شيء . حتى هذه القوة الجبارة التى يكمن الخوف من سطوتها فى نفس كل إنسان وطائر .

★ ★ ★

لعبة كل يوم

هذه الأوراق تذكره بدنيا قديمة .. دنيا قديمة ؟!. لا .. دنيا جديدة يعيشها بكل أبعادها .. إحساسه بها يأخذه من كل جانب .

وعندما وقعت عينه على ورقة (الشايب) خفق قلبه .. فهو الآن راجع من هناك .. ترك الرجل الذى نمت لحيته أخيرا واختلط فيها البياض بالسواد حتى صارت رمادية ــ فى مثل هذه الصورة الواقعة بين ثلاث ورقات أخرى ليس بينها (ولد) وزوجته تكركر بالضحك وتنظر إلى بطنها المتكور . خمن بحواشى إحساسه أنها متفائلة .. آه فى أوراقها (ولد) وربما فى بطنها (ولد) أما هو فإنه يرى العقدة الواقعة بين العينين فى الصورة على هذه الورقة ويتذكر صورة الرجل الذى كان فى زيارته .

والأوراق تمر بين يديه وهى توزع .. زوجته توزع .. وهو يرمى ولا يأخذ أو يرمى ويأخذ .. غير أن نكهة هذا العالم الصامت المائج بالأرقام والصور ملأت حواسه . فليس من الضرورى لأى عالم لكى يشغلنا ــ أن تملأه أشياء حية لأننا قادرون ــ كناس ــ أن نضفى عليه الحياة من خارجه كشأن الصحراء . وكشأن هذه الأوراق .. هذه « الكتشينة » إنه يحس إزاء كل ورقة بمعنى شخصى ومعنى عام . هذه الأوراق التى ربطها الناس بالحظ والمهارة أخذ بعض أفرادها صفة شخصية تكاد تكون عالمية .. فيها السعد والنحس لكنه هو شخصيا يشم رائحة كل ورقة . كأنما قطفها من أشجار الحياة .

ورنت ضحكة زوجته وصفقت عندما أحرقت « ولدا » كان فى يده .. سبقته بجمع ما على المنضدة يولد كان معها . وعند ذلك أهوى به ورماه ونظر إليه نظرة إشفاق .. حملقت إليه امرأته وقالت له : « انظر .. انظر ماذا فعلت

به .. » .

لكنه مضغ ضحكته وبدأ يوزع .. نظر إلى هذه الورقة وكأنها فوق مستوى الحوادث : « ولد .. شاب انهزم .. لا بأس .. كل شيء يتحمله الشاب حتى الهزيمة الساحقة » .. وكانت الصورة تنظر إليه على المنضدة كأنها تؤمن على ما يقول بتلك النظرة المحددة المنبعثة من العينين والأنف المستقيم الذى يدل على الصلابة .

وجاء صوت زوجته وكأنما أدركه الفتور : « العب .. مالك سرحان » .

وكان يتذكر بهذا الأنف أنف شاب آخر . أكبر منا سنا ، مهندس مبان يعمل فى أسوان منذ البدء فى بناء « السد العالى » .. لا يراه أحد .. أوحش الجميع ولكن ظروف العمل قد تقص من أطراف الوفاء لانها تأكل كل فرصة .. حتى الأعياد لم يعودوا يرونه فيها .

وكانت أول ورقة نزلت إلى جانب « الولد » على المنضدة هى « الشايب » مرة أخرى . وضحكت الزوجة : « وهذا أبوه » ولم تكن تدرى وقع هذه الكلمة على قلبه . فمع هذا الابن وهذا الأب سهر زوجها ليالى لا تستطيع هى أن تدرك عمقها . فهما يلعبان لعبة اثنين يتسليان . يجعلان من هذه الأوراق دواء للملل . ولم تدخل حرب الأعصاب فى اللعبة بينهما قط . أما اللعبة القديمة فقد كانت مبنية على حرب الأعصاب وهو شخصيا كان الضحية الممتازة لهذه اللعبة .

ففى مساء كل خميس كانت تأتى لزيارتهم عمتهم « مفيدة » ومعها « عنايات » .. لماذا كان يرى فى صورتها ملامح من صورة « البنت » فى أوراق اللعب .. كان ذلك قبل الآن .. ذقن مدبب وعينان كحيلتان ولونها الزاهى ووجهها الطيب المائل إلى الشحوب يكاد يكون وجه راهبة .

كان يتخيل هذا قبلا .. أيام زمان .. أيام كانت زيارات عمتهم «مفيدة»

تأتى بنظام شبه ثابت حتى كاد يتحول إلى ظاهرة أسبوعية .

وفى هذه الليلة بالذات لا يخرج والده إلى « المقهى » للسهر مع أصدقائه بخلاف معظم الناس الذين يفضلون السهر خارج المنزل فى الليالى التى تسبق الإجازات .

وتطوف بالبيت حركة غير عادية أشبه بشعور الإنسان بالميل إلى الرقص ، كل شيء فيه فرح حر منطلق يكاد يقفز كعصفور .

وأتاه صوت زوجته عندما وصلت أفكاره إلى هذا الحد تقول له : « هيه .. عشرة طيبة » وتنهد . وشم رائحة الورق .. شكلها سعيد يوحى بالطمأنينة حقيقة مثل صاج ملىء بكعك العيد .. إنه يشم من هذه الورقة رائحة الزبدة والفانيليا .. إنها على كل حال ذكرته باجتماع الأسرة . أبوه جالس فى جلباب أبيض بعوده المتوسط ولونه الأسمر على ملامحه بوادر سرور وبقايا « شقاوة » أيام الشباب .

كانوا يجلسون على الأرض المفروشة بالكليم فى حجرة إضافية سموها حجرة الشعب فيها سرير تقليدى موروث عن الأجداد كان الأب يشم فيه روائح الذين ذهبوا عن الدنيا وصوان ملابس بمرايا ظاهرة تعكس هذا الجمع .

وبعد العشاء يلجئون جميعا إلى هذه الحجرة بلا استثناء فيدخل الأب ويتخذ مكانه المعروف فى الزاوية التى يصنعها الصوان مع الحائط . كتفه يلمس المرآة وإلى ناحية منه زوجته وإلى الناحية الأخرى شقيقته . ثم يجلس الباقون كما يتفق . ثلاثة من البنين وبنتان .. البنين .. أكبرهم « سمير » ذلك المهندس وأصغرهم هو .. ذلك الذى يلاعب الآن زوجته .. وحدهما بلا أولاد . إلا ذلك الجنين الذى كور بطنها وأسعد قلبها وجعلها تقبل كل ولد من أولاد « الكتشينة » موهمة أنها فرحة به كلعبة . وهى فى الحقيقة تعبر عن أمنية قلبها . غير أن « عنايات » كثيرا ما كانت تتعمد الجلوس إلى جانب سمير

والأوراق تمر بين يديـــــــه ..
زوجته توزع .. وهو يرمى ولا يأخذ

(حافة الجريمة)

فيراقب الأب ظهورها بذكاء وصمت .

ما كان أجمله فى الجلباب الأبيض حين يتربع ويأخذ نفسا عميقا ويبدأ فى توزيع أوراق اللعب فى تلك اللعبة التى أسرت قلوبهم جميعا وشحنتهم بالذكريات « لعبة الشايب » تلك التى كان الحياء والغش وربما الأعمال غير المشروعة فى قانون اللعب بين الضحكات أو النكت أو الصمت أو إسبال الجفون أو الحملقة أو إشارات الإرشاد الخفية التى تعتبر بمثابة خيانة .

لم يكن فى وجه والده هذه التجاعيد و لم تكن له لحية نامية فى ذلك الوقت و لم تكن عليه ملامح « الشايب » الذى يراه الآن بعد أن رمت زوجته بورقة على المنضدة .

أما هو فقد كان هو الحائط الواطى الذى يتسلقه الجميع .. إنه يعترف بينه وبين نفسه أنه غير ماهر فى لعب الورق . والأدهى من كل هذا أنه غير ماهر فى تزييف إحساسه ومشاعره ويبدو أن ذلك ضرورى فى كل لعبة .. حتى لعبة الحياة نفسها ..

فعندما يجتمعون على شكل دائرة كثيرا ما كان يجلس جنب سمير .. فيكون هو فى ناحية وعنايات فى الناحية الأخرى .

وتقسم الأوراق بالتساوى وفيها « شايب » واحد ويخرج كل فرد الأوراق المكررة فى حصته بحيث يصبح مطلوبا منه أن يحصل على ورقة جديدة من جاره بالاقتراع .. ظهر ورق جاره إليه ويسحب هو ورقة فإذا كان معه زميلة لها تخفف من ورقة جديدة . وتجرى العملية هكذا باستمرار . كل يأخذ ورقة جاره فإذا كان لها نظير عنده أو شك على البراءة وإلا تخلف حتى لا يبقى من المجموعة سوى اثنين مع أحدهما « الشايب » الملعون والأخرى بها نظير ملاعبه تحمل العدد المعروف من واحد إلى عشرة .

ولمن يبقى معه « الشايب » أخيرا « علقة » مكونة من ضربات بحزام الأب وينطق بالحكم أيضا أوراق « الكوتشينة » حين يسحب المهزوم ورقة بالقرعة تحمل رقما بين واحد إلى عشرة هو نفسه عدد الضربات التي سيأخذها بالحزام على رجله أو يده من اللاعبين جميعا .. قد تكون عشرة فى ثمانية لاعبين بثمانين ضربة لا تقبل التخفيض .

وسألته الزوجة وهى تتمطى وتنهض فتحضر كوبين من عصير الليمون : « هل تعرف لعبة الشايب » .

— أعرفها .. لكن لعبها يستدعى عددا ..

— عندما نخلف أربعة أولاد .. أعتقد أننا نكون قادرين على لعبها ..

وقرقرت بالضحك وخرجت من الحجرة . فنظر إلى ظهرها الذى قوسه الحمل . وأخذ أوراق اللعب وجعل يعبث بها بلا نظام عبث من يطوف بأرض يعرفها لكنه — فقط — يمضى فيها كيفما اتفق .

« الدوه الطيب .. الآس .. العشرة الطيبة .. ذات العلامات التى تشبه الزهرة .. آه .. » .

وذكرته الأخيرة تلك العشرة السوداء بما حدث له ذات ليلة وهم يلعبون .. تذكر فاحتقر نفسه . قال رجل اليوم فيه لغلام الماضى : « إن الهزيمة لا تكون فادحة أبدا إلا بشرط واحد هو أن يبكى المهزوم. » .

كان أبوه جالسا فى جلبابه الأبيض فى الركن بين الحائط وصوان الملابس وكان هو قد سقط فى اللعب ثلاث مرات فى هذه الليلة وحدها . وكان أبوه يضحك لكن ضحكه يوارى أسفا . وفى المرات الثلاث الأولى بلغ مجموع ما أخذه سبعين ضربة بالحزام بعضها على كفيه وبعضها على قدميه .

وعندما جاء دور الدور الرابع كان الثلاثة الباقون فى المجموعة « سمير »

فى الوسط وهو إلى شمال سمير و « عنايات » إلى يمين « سمير » .

ودار الصراع .. ثلاثة .. رجلان وامرأة .. وكانت عيون المجموعة تتابع المعركة بفضول ودقة ولذة .. نظر سمير إلى عنايات نظرة ذات معنى .. نظرة تحمل معنى الحب والأمر أن تخرجه هو من المعمعة وتبقى مع شقيقه وجها لوجه . ورأى الأب معانى النظرات فى المرأة . وشعرت العمة بعمق العلاقة بين الاثنين غير أنها فى سبيل أن تخصب التزدهر لا بأس عندها من أن يسخروا من الآخر .. أليس هذا لعبا ؟!. لكنها لم تسأل نفسها عن الفرق بين ما يحدث فى لعبة « الشايب » وبين ما يحدث فى الحياة أليست كل قصة حب معقدة ذات رجل وامرأتين أو امرأة ورجلين .

ونظر الشقيق إلى سمير وعنايات عندما كان سمير يأخذ ورقة بالقرعة من أوراقها هى ، لم يفهم الشقيق شيئا مما يدور لكنه رأى نظرة جانبية تتجه إلى ورقة حاولت أن تجعلها منفصلة عن المجموع ونظر إليها سمير وتردد . ألقى نظرة خاطفة على العيون والأفواه كان المسبل منها يفهم والصامت منها يتكلم . كان الجميع يفهمون ماذا سيحدث . غير أن الشقيق تمنى أن يكون مع الفتاة وجها لوجه فهذا أفضل عنده مائة مرة من مصارعة أخيه .. هكذا قدر .

ونحو النظرة الفاترة امتدت يد « سمير » وأخذ الورقة وهلل فقد كانت ثمانية ولها نظير عنده . وعندئذ رمى ورقتين خارج اللعبة وأعطى الثالثة لشقيقه كنظام اللعب فأصبح مع الشقيق ثلاث ورقات ليس فيها « الشايب » ومع الفتاة ثلاث ورقات غير « الشايب » .

وعندما بدأ اللعب انتقل الشايب بغمزة عين من بد الفتاة إلى يده هو . إنه يذكر ذلك .. لكن أى أثر لم يبد عليها ..

لذلك حاول هو ضبط أعصابه ، وبدأت تسحب منه . وكانت مغمضة تقريبا لا يرى ماذا فى عينيها . صراع صامت كان بين شخص ونفسه وأخيرا .. صدرت صيحة فرح تعقبها ضحكة عالية وقفزة كانت من عنايات حين أصبح « الشايب » وحده فى يد الشاب .

وضج الجميع بالضحك . تلفت الشاب الصغير كالمذعور ينظر فى عيون من حوله . كان صغار السن يتغامزون وسمير يبتسم فى صمت وفى عينى الأب شفقة وضيق .

وقالت الأم :

— طول عمرك خايب .. حتى الفتاة تغلبك ..

فقال سمير :

— النصر السهل تناله الفتيات باستمرار يا ماما ..

وقال الأب :

— كل من يرحمه منكم فى الضرب يكون قليل الأدب .. يجب أن يتعلم ..

ولعل الأب ندم على ما قاله لكن لم يكن هناك مجال لسحب كلمته أو تعديلها .

وبسطت أوراق الكوتشينة أمامه مقلوبة هكذا .. كما يعبث بها الآن .. ظهرها جميعا له كظهر من كانوا يلعبون معه . كأنها المستقبل .. تعرف أسماؤها بلا حواء وآدم .. ومد يده بارتباك . كانت ضحكات تهمس وضحكات تقرقر وعين والده تنظر إليه كأنه يرشده نحو ما لا يعرف هو نفسه . وسحب ورقة ثم تركها قبل أن يكشفها .. وضحكوا .. وسحب ورقة ثم أخرى .. وكشفها .. وكانت العشرة السوداء هذه ذات الأزهار

الحزينة القاتمة . وضج الجميع بالضحك خصوصا عندما مدت عنايات يدها إلى الورقة التى تراجع عنها فإذا بها « آس » يعنى ضربة واحدة من كل واحد لكن الآن لابد أن ينال ثمانين ضربة ..

أحس ليلتها بالخزى .. هل فى اللعب سلوك مثل الحياة . لماذا كان ذليلا هكذا ؟! وألقى نظرة على « الشايب » وفجأة وبلا تدبير بصق على وجهه .

وكانت هذه الحركة مولدا جديدا لضحكات أخرى . وبدأوا فى تنفيذ الحكم . بدأ الأب .. كان حانقا .. كان يود أن يمنح هذا الولد شخصية متحركة يستطيع بها أن يقرأ وجوه الناس ويلف ويدور . الذين هم أصغر سنا منه لم ينهزموا هذه الهزائم . أربع مرات متواليات ؟!

وبدأ الأب يضرب .. واحد .. اتنين .. آه .. تلاته .. أربعه ..

ضرب شديد لكن عز عليه أن يتأ لم فقد كان مقدرا أن أحدا غير أبيه يفعل هذا مثل سوسو الصغير مثلا الذى يريد أن ينتقم لضربه عند تعليم الحساب . لكن من الأب ؟! وصمت .

ومد رجله اليمنى . ثم رجله اليسرى . وعندما جاء دور « سمير » مد رجله فى وجهه حتى كادت تلمس أنفه فانتقم . وجاء دورها .. دور عنايات تلك التى أبعدت سمير عن المعركة ودخلتها بدلا منه ثم تغلبت عليه . وفكر .. هل يمد لها يده . أو يمد لها رجله .. لكنه فرك كفا بكف ومد يده اليمنى .

أمسكت عنايات بالحزام الجلدى ورنت إليه . كانت نظرتها شفيقة متكبرة كأنها تقول : « كفى ما أخذته بسببى » ولكنه عز عليه . فقال مستعجلا : « اضربينى .. اضربينى .. اضربينى .. أنا راجل اضربى » .

فأخذت تضرب برفق شديد .. أحس كأن ضربها نوع مما يسمى « سد خانة » .. وعندما انتهى الضرب وهمست بعدد عشرة لم يدر لماذا انخرط فى

البكاء . بكى كأنما بعيون جميع المضطهدين .. وسمع همسا من الجميع :

ـــ اخص .. اخص .. اخص ..

فلجأ إلى غرفة أخرى بينما استمرت اللعبة دائرة .

* * *

ودخلت الزوجة بكوبين من عصير الليمون . كان على وجهه أثر ذكرى .. لكنها قالت بصوت يحمل إغراء متعمدا :

ـــ تقول عندما تصبح فى أسرة عددها ستة ستلعب لعبة « الشايب » .

ـــ نحن نلعبها كل يوم ..

فردت مندهشة :

ـــ كيف ..

ـــ فى كل مكان . ليس بأوراق اللعب وحدها .. فقد تعلمت منها ذات ليلة أن البكاء من الهزيمة أعظم انتصار يأخذه الخصم ..

لم يكن يشغل بال الزوجة التى قالت :

ـــ وما رأيك فى عصير الليمون . حلو ..؟!

ـــ جدا ..

وكان وجهه على ورقة الشائب فى هذه اللحظة ..

ـــ إننى لم أر أبى منذ يومين .. لقد أوحشنى .. إننى أحبه .. والمهندس سمير لم يحضر من أسوان منذ سنتين .. أبوه يسأل عنه خصوصا بعد ما لزم فراش الشيخوخة .. لو كنت رأيته يا سناء وهو يلعب معنا لعبة الشايب أقصد أبى .. كان فى منتهى القوة .. أقصد الخلقية .. وهو الآن يدعو لى .. منذ

ماتت أمي يا سناء وأبى لا يهضم الحياة .. هه .. عصير الليمون حلو ومر .. لكن .. هل يا ترى صمم سمير المهندس هو وعنايات زوجته على ألا ينجبا إلا هذا الولد الوحيد ..؟! أنا موافق على تحديد النسل .. مع مخالفتى فى نجاح تربية الولد الوحيد .

كانت الزوجة تنظر إليه باستغراب .. وكان هو كمن سكر تماما فخلط بين الأزمنة الثلاثة يتكلم عن الحاضر والماضى والمستقبل . وعيناه على صورة الشايب وفى حدقتيهما حنان كثير ..

★ ★ ★

كانت تقطع الطريق فى الظلام وحدها بعد أن تفرق عنها النسوة عائدة إلى دارها فى الطرف الجنوبى من القرية فى ليلة شتاء دفيئة ضبابها شفاف والسماء تلمع فيها النجوم .

ولم يكن بينها وبين الدار مشى طويل .. متلفعة بشال من القطيفة أسود بهداب سخى غطى ظهرها. أهدته إليها عروس من قرية مجاورة فى ليلة الدخلة .

ومرت على المسجد الهاجع .. على بابه المعقود على شكل قوس مهابة أدخلت على نفسها خوفا .

فقد ذكرت فى ماضيها أشياء لا تحصى . منها ما هو خاص بها ومنها ما هو خاص بالناس ..

وحملتها الأفكار إلى منطقة نائية من العمر فلم تشعر بأنها ماشية . بل كانت مثل الطيف .. فى غيبوبة منتبهة تعرف الطريق كطائر أصابه الصياد ولم يسقط فهو يهفو نحو العش .

وهناك على مقربة من الدار بقايا من حطب الذرة مرصوصة على شكل « تل » . تحرك بينها شيء فخشخش فجفلت وشعرت بالخوف لكنها ما لبثت أن سمعت نحنحة رجل فخرج من كن صنعه لنفسه وحياها تحية المساء .

ولم يكن هو إلا الخفير . شم رائحة عطر فاح منها فطار النوم من عينيه . وكان يعرف أنها هى . ويعرف أيضا أين كانت .. وحين ضغط على يدها مباركا لها لم يكن يقصد إلا شيئا واحدا .. هو أن يكتب الله لها فى أيامها الباقية سترا يمنع العذاب .

ثم سارت وهى تحس خشونة يده ودخل هو إلى كنه فى الحطب وجلس يستنشق رائحة العطر فى كفه الخشنة ويذكر أيامها الخوالى ..

***

وفتحت هى الباب فإذا الدار صامتة . لم يحيها وقت الدخول إلا أوزة دارت حولها تقطقط وتشد ثوبها بمنقارها . لم تلتفت إليها . كان همها أن تدخل وتستلقى فى الفراش . شد ما تحس بالتعب . كان خمسا وستين سنة صبت أيامها ولياليها فى قالب من الحديد وحملته هى .. هذا هو عمرها . ولو أن جسمها لا يزال طريا لكن الوجه امتلأ بالغضون .

وأقفلت باب القاعة . ورمت شالها الكبير ورقدت بثيابها ..

وعندما لمس جسمها الحشية المفروشة على الأرض أحست كأنها فى أرجوحة . كل شىء يميد . وبدت عروق الخشب التى سودها الدخان كأنها قضبان خمسة امتدت فى السقف تمضى إلى نهاية مجهولة .

كان هناك إلى جوارها مكان خلا لأول ليلة . هو مكان بنتها « تحية » التى تنام الليلة فى حضن عريسها . كان فى قلبها شرخ يتسع عند التنهد . فقد أحست الليلة أنها تواجه شيئا غامضا يناقشها حسابا تأجل عاما بعد عام .

وعلى الرغم من سعادتها بحل مشكلة زواج « تحية » فإنها تحس بمرارة ظاهرة . فقد كانت بنتها على وشك أن تصبح عانسا خطت نحو الثالثة والثلاثين من عمرها وهى فى قرية تتزوج العذارى فيها كما تؤكل فواكه الموسم .. أولا بأول .. وليس هناك شىء يتلف . إلا بنتها .. بنت من ؟! بنتها هى ؟! الخاطبة والماشطة .. التى يعرفها كل الرجال فى الظلام برائحة العطر . وكل قطعة من ثيابها تحكى قصة هدية .. من عذراء حسنة النية أو أخرى حل بها مكروه . أو أم هذه أو تلك . أو شاب أو رجل . فقد طالما جمعت بين الرءوس بكل الوسائل .

وتقلبت على الحشية ونظرت إلى خشب السقف ثم إلى مكان بنتها الخالى .

وذكرتها .. استحضرت صورتها هناك بقدرة شديدة الدربة ..

وشعرت بشىء أخير من السعادة .. لكن التنهد جعلها تحس بالصدع . فقد ظلت فى السنوات الأخيرة نهبا لقلق ولوم ويفترسها بضراوة . عندما كانت امرأة تدعو لبنتها « بالعدل » كانت كأنها توجه إليها اللوم .. كأنها تقول : تعملين لغيرك ولا تعملين لبنتك ..

وكانت تحية تسمع مثل هذا الحديث مغلفا فى « دعاء » أو ملفوفا فى « نكتة » .. عندما تجتمع مع النساء فى الأفراح أو تلتقى معهن فى السوق . فكانت تحس بالتعاسة وبشىء آخر مع التعاسة هو نقمة على الأم ..

غير أن هذا لم يغير سلوكها فقد كانت موقنة بوجوب الوقاية . مثل السليم بين المصدورين حين يعتنى بصحة نفسه . وكانت تعلم أن أمها عقبة فى سبيلها . حتى وقعت ذات يوم فى حادثة غرام ..

* * *

وتقلبت الأم على الحشية . فلم تكن تريد أن تنام . ذكرت هذه الحادثة .. ذات ليلة استيقظت على بكاء « تحية » فهالها الأمر . أحست بفزع من احترف القتل حين تمر فوق رأسه « طلقة » . تذكرت الدهاليز وحقول الذرة والإشارات الغامضة بتدبيرها هى . ثلاثون عاما وهى تزاول مهنتها حتى فقد كل شىء سحره وزال الغموض عن السر المقدس — فى نظرها — بين الرجل والمرأة .

لكن دمعة بنتها أحرقت قلبها ..

أمسكتها من شعرها ورفعت رأسها من فوق الوسادة وجلست معها جنبا لجنب . وذكرت الأم فى هذه اللحظة ومصباحها يتراقص مائة قصة من الخداع فى سبع قرى داخلة فى دائرة عملها .. وصرخت فى الفتاة ليلتئذ :

ـــ تحية .. قولى .. من ضحك عليك .. لا تنكرى ؟

وكانت الأم تصرخ والفتاة تبكى . وظلت المرأتان على هذه الحال ربع ساعة ضاقت بعدها الأم بنفسها .. وهمت بعمل خطير لكن الفتاة دفعتها فى صدرها بقبضة يدها بلكمة قوية . لكمة من تريد أن تتخلص من عار :

ـــ المسألة غير ما فى مخك .. المسألة مسألتك .. أنت .. أنت ..

ومن خلال دمعها حكت حكاية حب .. حكاية ذلك الشاب الذى سحرها باستقامته واجتهاده .. وودعها وداعا صادقا حلوا قبل سفره للجندية .. وغاب ورجع .

* * *

كانت أمها فى هذه الليلة فى قرية أخرى بعيدة تجمع بين رأسين فى الحلال ولن تعود إلا فى ضحا اليوم الثانى . ووالدها المكفوف البصر راقد على السطح يستجدى الليل نسيمه لأنه بدين ومصاب بالربو . وكانت تحية فى ساحة الدار تقوم بأعمال عادية . حين سمعت نقرة على الباب ففتحت . وعلى ضوء اللهب الآتى من الكانون رأت وجهه . كان قد تغير .. ازداد صحة وشبابا . وبدا مدنيا ريفيا فى ذلك الوهج الأحمر . وابتسامته ساحرة . وهمس : « تحية ؟! وحشتينى .. من عندك ؟! » .

فلم ترد . كان ريقها جافا .. أحست أنها تريد أن ترتمى بين ذراعيه . لكنها تذكرت أين أمها ؟! وماذا تعمل . فأشارت بأصبعها إلى فوق السطوح . لكنه دخل وأقفل الباب . وسأل عن أمها . فأشارت كاذبة : « فوق » .

وفى لحظات أحست أنه تغير . أخبرها همسا أنه مسافر غدا صباحا . وأنه مشتاق . وأنه يفكر فيها . وأنه يحمل لها هدية . وأنه يجب أن تقضى بضع دقائق لهما معا .. ثم .. تنادى على أمها لتعلن قدومه .

وظلا معا فى الركن بعيدا عن وهج الكانون . كانت مضغوطة بين ذراعيه ترتجف . وسمعت سعلة أبيها فحاولت إبعاده .. وجذبته قليلا نحو النور فرأت على وجهه علامات غريبة .

فى هذه اللحظة أحست بالفزع .. ليس من الشاب لكن من العدوى .. فكل الناس يظنونها مريضة وإن لم يبد عليها المرض لأنها بنت لهذه المرأة .. وهى بينها وبين نفسها واثقة من سلامتها تماما .

وشعرت أنها عند الحافة ..

فانهالت على صدره بقبضتها ضربا . وعندئذ أفلتت من فمه كلمة أشارت إلى عقيدة كبلها الحب وأطلقها الغضب .

قال فى صوت كالفحيح :

— تضربيننى ؟!.

ثم ضرب لها مثلا :

— « اكفى القدرة على فمها .. » .

وتركها وخرج .. ووقفت هى تردد فى سرها بقية المثل .. « تطلع البنت لأمها .. ضرورى ؟! ضرورى ؟! » .

وسافر هو . وسهرت هى تبكى فى الليلة التالية . حين استيقظت أمها على نشيجها .

***

وشعرت الأم بالتعاسة . أحست أنها عقبة فى سبيل هذه الفتاة . لقد اشتهرت هذه الأم بالتجارة فى الفاكهة المعطوبة ولو أن الغالبية العظمى من فواكهها سليم .. لكن ..

وتنهدت :

وعادت النقرة . وفتحت الباب
فــإذا بــه أمامهــا .. هــو بعينــه

ـــ آه .. يا بنتي ..

و لم تزد ليلتها على هاتين الكلمتين . ثم رقدت كل منهما بجانب الأخرى .

***

وها هو ذا الزمن قد مضى .. وإنها الليلة راجعة من عند « تحية » لقد تزوجت وهى على حافة الخطر .. بعد أن مات أبوها الفقيه الأعمى وكفت أمها عن « العمل » منذ سنوات لأن آلام المفاصل استبدت بها وأصبح جريها فى البلاد محالا .

وبدأت « تحية » تحمل مئونة العيش فى يأس وتكفير عن ذنب من ؟!! ذنب أمها .

حتى كانت ليلة صيف وأمها راقدة على السطوح وهى فى ساحة الدار تقوم ببعض الأعمال .

سمعت نقرة على الباب ذكرتها ماضيا بعيدا . ماضيا لشاب أحبته لكل صفاته ثم اكتشفت فى الليلة المعهودة أنه مشغول بالتفتيش عن شىء خسيس فيها فلما لم يجده .. انصرف عنه !!

وأرهفت تحية سمعها . وعادت النقرة . وفتحت الباب فإذا به أمامها .. هو بعينه .

كانت النار تتأجج فى الكانون ودخل الرجل .. ووقف معها فى النور وسأل بصوت عال عن أمها فردت بأنها فوق .

لكنه عاد فاحتضنها بقوة ثم تركها وصعد إلى أمها . وبعدها تم الزواج .. وكانا فى سن واحدة .. فى الثالثة والثلاثين .

***

وأغمضت الأم عينيها وعادت تسترجع الماضى . شعرت بفرحة عابرة لآخر مرة فى هذه الليلة . وهى تتصور بنتها فى هذه الليلة فى أحضان زوجها . ثم حملقت فى خشب السقف وتسللت الوحدة بكل سكونها ومعناها وعمقها إلى أعصابها . وخايلتها هى الأخرى صورة زوجها الكفيف البدين وكأنه جالس يقرأ القرآن وهو يتمايل فى حركة بندولية .. ظلت تهدهدها كالطفل فى الأرجوحة حتى استغرقت فى النوم .

* * *

أما الخفير فى الحطب فقد كان كلما تذكرها عاد فشم كفه ليستنشق منها رائحة العطر . فأغمض عينيه واستسلم تحت غطاء الصوف فى كن الحطب إلى أفكار متواردة .. رجال ونساء وفتيان وشبان .. وحوادث تكلمت عنها القرية علنا وسرا . وأخيرا تنهد هو الآخر .. فقد كان من الذين يدعون لتحية بألا يلحقها قدر أمها وذلك كلما رآهما معا على الطريق والأنظار تتبعهما من الخلف .

***

سنابل

فتح عينيه مستيقظا من النوم فجأة كأن يدا قد هزته . تلفت فإذا الظلام مخيم والليل ساكن لا قمر فيه . والرطوبة ورائحة القش تملأ أنفه وهو مستلق على ظهره تحت غطاء من الصوف . ونقيق الضفادع متخاذل يغالب النوم .. كل شيء يستريح .

تمطى تحت غطائه فسمع طقطقة عظامه .. أحس بالراحة .. كان نومه عميقا بدليل ما يحسه الآن .. وكان طويلا بدليل أن القمر قد غاب . وحملق فى النجوم فرأى بريقها المعدنى يغمز فى صمت فتحرك فى مرقده ثم جلس .

كانت أجران القمح ممتدة حوله لا تكاد العين تدرك لها نهاية . قشها المكوم على هيئة مستطيلات أو مكعبات أو هيئات لا أشكال لها ـــ تبدو فى ظلمة الصيف مثل كثبان من الرمل مختلفة الأحجام . والنورج بحديدها الأسود فى جمود .. آلات تطحن بالنهار وتجمد بالليل مثل حيوان شبع ونام . ليس فى الجرن حركة قريبة منه . فأحس بظل من الأمان يخيم على كل شيء ، ظل لم يستطع له تعليلا . لعله كان منبثقا من داخله المليء بالراحة أو لسبب لم يقدر هو على الوصول إليه .

غير أنه نفض عن نفسه الغطاء وقام واقفا . أخذ يتلفت فى كل اتجاه فملأ الصمت أذنيه . وتذكر حركة النهار تحت وهج الشمس وهم يدرسون القمح .. أزيز النوارج والكرابيج فى يد الفلاحين يلفحون بها مؤخرات الحيوانات ... تلك التى تلف فى دائرة مقفلة .. وتذكر ابنه الذى نام على الصرير الرتيب فهوى وكاد يموت .. جرح فقط ولطف به الله . ولولا أدركه عمه .. أخوه فاعترض سبيل الماشية لما وقف النورج .

وألفى نفسه ينظر إلى السماء كأنه يحس من ورائها وجود الله ذلك الذى

لطف به فنجا له ابنه . وخفق قلبه لتلك الخاطرة ودخل أخوه نطاق ذكرياته . سأل نفسه عنه كأنه لم يره منذ زمن طويل فذكر أنه منذ ليلتين فى البندر هناك على مقربة من زوجته المريضة فى المستشفى الأميرى . وقبل أن يسافر أوصاه أن يولى قمحه شيئا من الحراسة .. خصوصا بالليل .

ولم يكن أحد يعلم أن شقيقه « محروس » غائب عن القرية كطبيعة القرويين فى إخفاء تنقلاتهم بعضهم عن بعض.وها هو ذا الآن غائب فى البندر ولا أحد يحس بل ربما ظنوا أنه كامن فى مكان ما بين أكداس قمحه بين القش وأن حركة واحدة من يد غريبة لابد أن توقظه من النوم .

ونحو جرن الشقيق « محروس » مشى شقيقه « كامل » بخطا خفيفة يجوس خلال المكان . تخطى ثلاثة أجران ثم وقف عند الرابع . ولما داس على قش القمح لم يصدر منه صوت ، ذلك لأن رطوبة الليل حولته إلى شىء طرى ليس له خشخشة ، وفى صمت وقف ينظر إلى المحصول المكدس بغير نظام فى عدة أماكن وبنظام فى أماكن أخرى .. ثم .. بطريقة تلقائية جلس على القمح .. وتناول إحدى السنابل وفركها بين كفيه ثم نفخ ما حولها من برج فبقى الحب .. أخذ يتسلى . أخذ يعد السنبلة وبعد ذلك اعتراه تفكير . تفكير عميق . تفكير العامل الذى يراقب نتيجة أعمال غيره ويحاول أن يوازن بينها وبين أعمال نفسه وأطرق قليلا وتنهد . أحس أن الفرق بين محصوله ومحصول أخيه لابد أن يكون كبيرا .. وتناهى إليه نقيق الضفادع فى شىء من النشاط كأنه يستحثه على القيام . عند ذلك تحرك ووقف ثم تحرك من جديد ودار حول الجرن وتنحنح . كل شىء على مايرام . فأعاد خطاه راجعا إلى حيث كان .. إلى جرنه . وعدل من وضع غطائه الصوفى الذى كان قد لفه على حزمة من القمح ليوهم أن أحدا يرقد تحته مخافة أن يمر إنسان ما مصادفة فيرى الغطاء بلا حارس .. ثم جلس كامل على قمحه هو . وتنهد . كان لا يزال يذكر عدد الحبات التى وجدها فى إحدى سنابل أخيه . ومد يده بحركة تلقائية وأخذ سنبلة من قمحه وفركها ثم .. نفخ

ما حولها من برج وبقى الحب .. وأخذ يعد فى الظلام .. « بسم الله الرحمن الرحيم .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. و .. » .

ولما انتهى من العد أحس أن الفرق كبير فأمسك بسنبلة أخرى . فركها بين كفيه ونفخ البرج حتى بقى الحب وعاد يعد .. لكن .. كانت النتيجة موحدة . لم يختلف عدد حبات الأولى عن الثانية فتأكد أن الفرق بين محصوله ومحصول أخيه سيكون كبيرا .

أحس بشىء من الضيق لم يستطع تعليله ثم .. سريعا وبحركة عقلية بدائية استخلص أن ذلك راجع للاجتهاد وأنه كذلك راجع للرزق .. ما كتبه الله مع العمل فى صفحة واحدة .. صفحة الأرزاق الشخصية .

وتمدد تحت غطائه وأخذ يحملق إلى النجوم . وبطريقة عادية تدل على السهر والفراغ أخذ يعد .. يعد النجوم .. وعندما وصل إلى المائة ألفى نفسه يضحك حتى كاد يسمع صوت نفسه . وفجأة وكأنما أوحى إليه بشىء قام واقفا . ودفن الغطاء الصوفى تحت أكداس القمح وأخذ يعمل عملية غريبة لم ينته منها إلا وجسمه يتصبب عرقا وإلا عندما سمع المؤذن على حائط مسجد يهتف لقدوم الفجر .

عندئذ كف عن عمله . جلس يمسح عرقه وينفض عن جسمه ما علق به من تراب وقش . ثم ذهب إلى الترعة وجلس يغسل هذا عنه . وبين وهلة ووهلة كان يشعر بمعان متضاربة .. يشعر أنه ما فعل إلا الصواب وأحيانا كان يشعر أنه فعل الخطأ كله . لكنه على كل حال كان قد انتهى . ظل ساعة كاملة ينقل القمح من جرن لجرن مستجيبا لنداء فى نفسه منتهزا غيبة أخيه ونوم الناس وبعد الأجران عن المساكن .

وعندما خلا بنفسه حسب المرات بالتقريب فألفى نفسه قد نقل مائة حمل على كتفه هو من جرن إلى جرن حتى تعب ظهره .

*** *** ***

لكنه كان قلق البال من أجل محصوله فى الجرن

وفى المساء التالى كان مريضا . لا يدرى لماذا ارتفعت حرارته . ثم قالوا له أن إحدى كليتيه ملتهبة وعليه أن يستريح فى الدار .

كان أخوه قد عاد من البندر وقد تم برء زوجته .. نعم . عاد سعيداً ولكنه قلق البال لأجل محصوله فى الجرن . ولم يكن يدرى مدى الحراسة التى بذلها له أخوه . على كل حال كان معتقدا أن حارسا واحدا على شىء واحد أقوى من حارس على شيئين لأنه كان فى رأيه لا يزيد على نصف حارس .

وعندما نزل إلى القرية تناهى إليه خبر مرض أخيه . ذهب إليه وعاده وسهر عنده حتى اطمأن عليه . وعندما هم بالخروج من الحجرة العلوية الصيفية فى دار أخيه نظر إليه شقيقه نظرة ذات معنى ضحك لها « محروس » ضحكة حية متدفقة قائلا له : « داين تدان ياما أقرب الأيام . يوم لك ويوم عليك . اطمئن يا كامل . كما حرست جرنى سأحرس جرنك » . ونزل وودعه أخوه بنظرة ذات معنى فلقد ذكر عدد مرات القمح التى حملها من جرن إلى جرن . كانت أكثر من مائة كل مرة منها هى نهاية ما يحتمله رجل .. وقال فى نفسه وهو يعتدل على ظهره وعليه الغطاء الصوفى الذى كان معه فى الجرن : « ربما كان مجموع ما نقلته من القمح يساوى حمل جمل .. حمل جمل .. وتنهد . وشعر أن أجفانه تثقل . كانت الآلام قد بدأت تخف عنه فأحس وطأة النوم . ورأى نفسه وهو بين اليقظة والنوم يقوم من جديد بتلك الحركة السريعة المدوخة . حركة نقل القمح من جرن لجرن . حتى أسلمه هذا الدوار إلى نوم عميق القرار .

***

فى هذه اللحظات التى هبط فيها كامل إلى أعماق النوم كان أخوه قد نفض الغطاء عنه . نظر إلى النجوم المتلألئة فرأى نجما يهوى .. عرف أن الفجر يحث

خطاه وأن الليل أوشك أن يولى . وكان الجو رطبا أيضا وحتى الضفادع فى الترع سكن نقيقها . سكون تسمع فيه خفقة النفس ونجوى القلب . وداس على القش فألفاه رطبا . لا حس ولا خشخشة . ودس غطاءه فى قمحه وتحرك نحو الجرن الآخر . رأى جرن أخيه وقد نفش منه جزء وقف عليه النورج فى جلال وجزء آخر قد رص بنظام وبحركة غير إرادية جلس على جرن أخيه . وبطبيعة الفلاح مد يده فأخذ سنبلة . فركها بين كفيه .. نفخ البرج فبقى الحب .. أخذ يعد : « واحد .. اثنين .. ثلاثة .. و .. » تنهد . شعر أن الفرق بين المحصولين عظيم . بين محصوله ومحصول أخيه .. نعم .. لكنه أعاد الكرة فأمسك سنبلة أخرى وفعل نفس الشىء . فركها بين كفيه وعد الحب . « يا إلٰهى .. ذلك حظ أو عمل ؟! » هكذا قال فى نفسه . لكنه أيضا بحركة عقلية بدائية استخلص أن ذلك راجع للاجتهاد وأنه كذلك راجع للرزق .. ما كتبه الله مع العمل فى صفحة واحدة صفحة الأرزاق الشخصية .

وعاد إلى جرنه وتمدد تحت الغطاء وأخذ يحملق فى النجوم بطريقة تدل على الفراغ . وبطريقة مألوفة عند الساهرين فى الفضاء أخذ يعد .. يعد النجوم .. وعندما وصل إلى المائة ألفى نفسه يضحك . نفس الذى حدث لأخيه . وفجأة وكأنما أوحى إليه بشىء قام واقفا . ودفن الغطاء الصوفى تحت أكداس القمح مرة أخرى وأخذ يعمل عملية لم ينته منها إلا وجسمه يتصبب عرقا والمؤذن يهتف لقدوم الفجر على حائط المسجد .

كان يفكر وهو جالس إلى ماء الترعة يغسل عن جسمه كل هذا .. هل فعل الصواب ؟ وأحيانا كان يشعر أنه فعل الخطأ . لكنه على كل حال كان انتهى . ظل ساعة ينقل القمح من جرن لجرن . نقل حمل جمل .. نعم حمل جمل حتى تعب ظهره .

***

وكعادة الفلاحين أخذ كل يسأل جاره عن كمية محصوله . وبدت السنة فى مجموعها أقل من العادية فى محصول القمح . فلم يكن فى الجرن محصول أعلى من ستة أرادب للفدان الواحد .

ولم يكن الشقيقان قد انتهيا من درس قمحهما. وعندما تم الدرس وبدأت التذرية كان كل منهما جالسا وراء الرجل الذى يؤدى هذه العملية وهو مطرق يفكر فى عمق عما عسى أن تكون النتيجة .

وفرغ « محروس » أولا فقصد نحو أخيه يحمل إليه الخبر :

— تصور يا أخى .. قمحى يعطى فى هذه السنة العرجاء ثمانية أرادب للفدان ؟!.

قام أخوه وقبله .. وظل صامتا كأنه يعرف السر . وبعد يوم واحد فرغ الأخ الآخر وعرف المحصول فقصد إلى شقيقه بدوره قائلا له :

— تتصور يا أخى .. قمحى يعطى أيضا فى هذه السنة العرجاء ثمانية أرادب للفدان .

فقام أخوه وقبله وظل صامتا كأنه يعرف السر .

* * *

أما حقيقة السر فالله وحده هو الذى دبرها . فقد أشفق الأخ الحاضر على أخيه الغائب فى البندر عندما خمن أن محصوله سيكون رديئا وهو صاحب أولاد وأن محصول حقله هو سيكون أوفى فنقل إلى جرن أخيه حمل جمل ...
وعندما مرض الثانى فى الليلة الثانية فعل أخوه نفس الشىء عندما خمن أن محصول أخيه سيكون ضعيفا وهو صاحب أولاد وأن محصوله أوفى فنقل

كذلك إلى جرن أخيه حمل جمل .

وهكذا لم يعد فى الموقف شيء يتنافى مع علم الحساب فقد جنى كل من الشقيقين ثمرة عمله فقط . غير أن شيئا واحدا مهما ظلل على محصول كل منهما ... ذلك المحصول الذى حرسه الحب فملأته البركة حتى فاق كل تقدير .

★ ★ ★

السَاهِرُونْ

أحس أن الليل طويل . فسأل نفسه وهو يتجه إلى النافذة ليلقى منها نظرة على الظلام : « هل خلق الليل لينام فيه الناس ؟ » ثم ما لبث أن أجاب عن السؤال : « لا ليس ضروريا فهناك أعمال لم يخلقها الله إلا لليل » وعندئذ سمع نحنحة الشرطى الموكل بالحراسة .رآه فى الشارع المظلم تحت بصره ينتقل مثل طيف ... بندقيته على كتفه وحلته صفراء .

إن هذا البندر [illegible]ير ينام مبكرا لكنه هو لم ينم حتى الآن .. ويحس أن الليل طويل .. طويل جدا .

وعلى مرمى البصر عدة نخلات متلاحقة فى الطول تقف فى ظلمة الخريف ونداوته رمزا لانتهاء موسم الفاكهة . وبدأ يشعر بالانقباض . إنه لا يدرى كيف يبدد الوقت ، وتمشى يقطع الشقة الصغيرة فى كل أرجائها ويتذكر ما كان يحفظه من حكمة عن الوقت « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » وعندئذ تبسم . فهو « محضر » فى محكمة البندر ، عازب غريب يسكن هذه الشقة . وكان قبل ذلك يقطع الوقت كل ليلة مع اثنين من أصدقائه لكنهم مع ذلك شعروا بأن الوقت « قطعهم » .. الثانى مدرس والثالث كاتب فى محل تجارى . وعندما يدخل الليل يلتقون بعد العشاء فى مسكن الكاتب وعلى كواهلهم أحمال معنوية لا يشعر بها سواهم . كل منهم ينظر إلى حائط المسكن وكأنه جبل يزحف عليه يريد أن يصرعه تحته فيلبس ملابسه ويجرى . ويلتقون فى شقة الكاتب .. إنه عازب مثلهم . ثلاثة من الغرباء . وكان المحضر أكبرهم سنا وأميلهم إلى السيطرة وهو الذى يوحى إلى المجموعة وينظمها .. وقد ظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى أقسم الثلاثة فى الليلة الماضية .

وقف المحضر يخاطب نفسه والليل أمامه ممدود على الكائنات بلا نجوم

على كواهلهم أحمال معنوية لا يشعر بها سواهم

ولا قمر والسماء مطموسة بالسحاب .

« لو أننى تزوجت لربما حدت عن هذا الطريق .. ربما كنت لا أشعر بالملل . لكن . فيم كنت أقضى الليل ؟ لقد فررت من أبى وأخواتى لأن أبى قضى لياليه فيما فررت أنا منه . قضاها هناك فى غرفة بلا نوافذ مع زوجة سقيمة .. وأنجب عددا من الناس تحير فى أمرهم . ثم استغاث بى كواحد منهم . لكننى لم أستطع أن أفعل شيئا . « وتبسم أسفا » كان يريد منى أن أطفىء حريقه بدموعى .. كنت سأفقد عينى ثم تأكله النار ، من أجل ذلك فررت .. ثم بدأت أحس بالوحدة وكم سخر منى زميلى محسن ذلك الذى ملأ دنياه بالهوايات .. آه .. لكنى لم أكن أصدق أن هذا نافع .. كان ينسج سلالا من القش ويطرز مثل النساء ويرسم لوحات مثل فنان وكنت جاعله هدفا لسخريتى .. ثم تزوج — أما أنا فقد ألت إلى هذه الحال .. آه .. إننى لا أستطيع النوم .. شىء فى كفى ورأسى ودمى يتحرك ويحركنى وإن كنت ثابتا .. كعجلة تدور على الفاضى .. إننى أتعذب » .

وأشعل سيجارة ووقف يدخنها وينفث فى وجه الليل دخان اللفافة مثل تأنيب أو احتجاج أو تنفيس عما فى الصدر .

وفى الشقة الثانية فى جنوب المدينة كان المدرس ساهرا فى النافذة كذلك . الحارة ضيقة ومسدودة . والليل ساكن . وهناك فانوس على باب الحارة يلقى شعاعا متعثرا ما يكاد يصل إلى منتصفها حتى يذوب وصوت دجاج يقرقر فى هدوء واستعذاب للنوم فى سطح منخفض فى بيت جاره ، إنه ضئيل ضعيف الصحة يوحى مظهره بأنه فى الثلاثين وإن كان فى الأربعين من عمره ومنذ ثلاث سنوات وهو فى هذه المدينة الصغيرة . تعرف بالمحضر والكاتب التجارى وربطت بينهم تلك العلاقات المرة .. يقف فى نافذته الآن ويسمع بكاء طفل صغير أمه لم تخف إليه مع أنه يبكى منذ ربع ساعة .

وطاحت به الخيالات وغمره ما يشبه الغيبوبة . فهو حتى الآن لم يتزوج . ولم يدخر شيئا من مرتبة .. ولولا ذلك الكاتب التجارى لانكشف حاله فى الربع الأول من الشهر . والشباب فى سبيله إلى الذبول « فلماذا آل إلى هذه الحال » .

سأل نفسه هذا السؤال وسالت دمعة على خده . إنه لم يكد يكسب من الدنيا شيئا . عاش نهاره صارخا فى الفصل ثم يعيش الليل هكذا .. يقابله بخوف شديد ويريد أن يقطعه ولم يستطع أبدا أن يقطعه وحده .. كان لابد من زملاء له فى الأزمة .. يحملون نفس المأساة .. وأبوه وأمه فى غنى عنه لكنه فكر فى مستوى معيشة أعظم . إنه يحب السيارات فلما اقتنى منها واحدة أكلت قوته ... وحول الخبز إلى بنزين .. ولم يكن يدرى أين يذهب بها ولذلك فرضت هى عليه حركتها بدل أن يفرض هو عليها حركته . فكان يذهب إلى مدينة طنطا أو دمنهور ليقضى مع صديقه سهرة فى السينما ، ثم تركها فى الجراج أخيرا ثم لحقها الصدأ .. ثم باعها بأبخس الأثمان .. ثم ضاع ثمنها .

ثم تذكر زميله محمود المدرس ... ذلك الذى يقضى الليل فى القراءة وينفق من مدخراته على شراء الكتب .. لقد ظهرت له مقالة فى إحدى المجلات وطار بها وطار به التلاميذ وشعر هو ومن حوله أنه مخلوق أعيد خلقه . ثم رقى ونقل .. ثم لمع اسمه .. وفى نهر الاجتماعيات رأى خبر زفافه إلى باحثة اجتماعية .. لقد عرف طريق الحياة ... وعن طريق العزلة عرف أبواب الفكر وطريق المجد .. أما هو ؟!

وأحس أن دمعة تترقرق فى عينيه .. وساد صمت .. كف الدجاج عن القرقرة وكف الطفل عن البكاء .. وسمع من وراء تلك النافذة

ضحكة امرأة فازداد الليل ظلاما فى عينيه لأن علامات الأنس قد تخلق الوحشة لمن حرم من الأنس أيام شبابه .

ودخل وأقفل النافذة واستلقى فى الفراش يفكر فى مادة الحصة الأولى وذلك التلميذ النبيه الذى يحاول كشف إهماله .. والهرب المكشوف الذى يهربه من الأسئلة .. وتنهد .. وتذكر زميله وسأل نفسه : ترى ماذا يفعل عزيز المحضر وعبده الكاتب التجارى الآن ؟!.. « ترى ماذا يفعلان ؟! » .

أما الكاتب التجارى فقد كان فى هذه الليلة مثل ذئب حبيس فى قفص . شقته المطلة على الميدان الصغير مليئة بالبق .. لم تبيض حيطانها منذ سكنها . ولم تنظف كما ينبغى .

يطل من الشباك على الميدان .. ويستعيد الحركة التى يموج بها أثناء النهار . وتملأ أنفه رائحة الجبن والزيتون والحلوى الطحينية وكل ما يفوح عادة من دكان بقالة كبير . يقع على مرمى البصر منه .. بابه الصاج مقفل وعلى مقربة منه يمر شرطى متمهل ..

إنه فى الثلاثين من عمره ربعة سليم .. كفه بيضاء بضة مثل كف فتاة ومعصمه ملىء ملفوف . وله شارب أنيق يحير الحلاق فى تنسيقه .. لكنه طويل اليد .. وكان من الممكن لو حسب ما أخذه من الدكان اختلاسا فوق مرتبه أن يشترى البيت الذى يسكن فيه الآن أو يتزوج على الأقل .. لا يدرى أين يذهب المال .. وكل ما عمله من فضل رجا به وجه الله !! أنه أقرض صديقيه قرضا حسنا عدة مرات ولا يزيد مجموع ما أخذاه منه عن خمسين جنيها لم يسترد منها سوى بضعة جنيهات والباقى تحت رحمة الظروف التى يعيشها الثلاثة .

ليل وفكرة وسهر ..

جمعت الثلاثة على هم واحد .. كانوا عبيدا له صنعوا قيدهم بأيديهم ثم

وضعوه فى أقدامهم ثم أقفلوه ورموا بالمفتاح .. ليس هناك مفر .. كل واحد منهم يحب صاحبيه جدا ويكره صاحبيه جدا .. كالكبد المريضة مصدر ألم وسهاد وأحلام سلطانها الكابوس وليس هناك إمكان لاستئصالها .. عذاب !!

وكل منهم يسأل نفسه « ترى ماذا يفعل الآخر؟! » والليل بطىء وكانت شقة الكاتب التجارى هى المقر المختار لاجتماعهم . كانوا يطلون على الميدان الأخرس ويتساءلون : « أهكذا تموت الأماكن كما يموت الناس ؟! » ذلك الذى تسمع فيه فى النهار مئات الهتافات من سائقى سيارات الأجرة والباعة والسماسرة .

كان هذا الميدان صورة لليل المدينة ، ليس فى الخارج حياة . كلها خلف النوافذ والأبواب . ولمدد قصيرة جدا من الليل ثم تنطفئ الأنوار ويتحول كل حى وراء كل باب ونافذة إلى جثة تنتظر بعث الصباح .

أما هؤلاء الشبان فقد كان فيهم طاقة حاربت الليل وحاربها واهتدوا « وكأنما بالفطرة » إلى الطريقة التى يبددون بها الوقت . وكان شأنهم معها أول الأمر مزاحا ثم استلذوا المزاح ثم أصبح المزاح حقيقة كما هو مألوف بين من يتبادلون النكت ثم يتشاتمون .

ثم تحولت الحقيقة — التى هى فى الأصل مزاح — إلى عبودية مشوبة بالقلق والكمد والتلاوم كل منهم يلوم الآخر ويتهمه بأنه السبب . ومع ذلك لكى يتم العمل فلابد أن تكمل الدائرة وينسرق الليل .. ينسحب فلا يحسون به مثل لص فى ملابس سوداء يسلب أمنهم ووقتهم ولباب شخصيتهم .. ويمضى .

وفى الصباح يخرج كل واحد منهم وهو يفكر فى حوادث الليلة الماضية بينه وبين زميله . وأصداؤها عادة لا تفارق آذانهم .

والمسرة التى قد تكون فى نفس أحدهم تحمل فى طياتها سرعة الزوال فهو لذلك يقطع نهاره فى انتظار سواد الليل ليرى ما إذا كان هذا وهما أو حقيقة .

أما الحسرة التى قد تكون فى نفس أحدهم فإنها تحمل فى طياتها معنى الأصالة ولذلك فإن صاحبها يقطع نهاره فى انتظار سواد الليل ليرى ما إذا كان هذا وهما أو حقيقة .

ناس يسابقون ظلالهم فى مشوار لا ينتهى . حل الوهم فيه محل العقيدة بأنهم سينفصلون يوما عن ظلالهم ويسبقونها .

لذلك فإن الليل على الثلاثة طال بعد أن قرروا ألا يلتقوا حسما لهذه الدوامة التى هى مسابقة الظل .

لكن ما لبث الليل أن انتصف وأحس « المحضر » أن البقية الباقية منه نصف جبل من الجرانيت لا يستطيع حمله وحده فنظر إلى النخيل نظرة أخيرة ونزل إلى الشارع .

كان يعدو هو فى جلبابه وعوده يترنح وقصد توا إلى شقة المدرس .

كانت الحارة مليئة بروائح جوافة لعلها منبعثة من مخزن فاكهة فى بيت يشبه « الربع » ومع هذه الرائحة صمت وظلام وأحجار تعثر فيها . ودخل الباب . وكان السلم الضيق الذى كأنه منحوت فى الجدار فى مواجهته تماما .. فصعد .. صعد حتى طرق الباب .. ولم يرد أحد . وقف يتعجب .. كيف يستطيع أن ينام الآن والساعة لم تتجاوز الثانية عشرة والربع !!.. « كأنه خلى البال أو فى أحضان عروس » وتنهد وعاد يدق الباب بقبضة قوية ثم أخرج « مصباح بطارية » من الذى يحمل عادة فى الجيب وسلط نوره على الباب فإذا المفتاح فى الخارج .. فى الباب من الخارج .. فقهقه قائلا فى نفسه « نسيه ونام » .. وفتح ودخل فإذا السكن ليس فيه إلا السكون . وإذا بعديد من الأوراق الممزقة تملأ حجرة النوم داس عليها « المحضر » بشبشبه وكأنه يريد أن يقتل فيها شيئا حيا .

أقفل الباب — باب صديقه المدرس — ووضع المفتاح فى جيبه وهبط

السلم وهو غريق فى الأسى . ثم أخذ سمته إلى بيت الزميل الثالث .. الكاتب التجارى .. هناك حيث الميدان الأخرس .. حيث صورة حية للمدينة الميتة .. وصعد السلم وما كاد يقف بالباب حتى سمع جدالا وضحكا . وطرق الباب فإذا صوت أحدهم يقول : « إنه هو بلا شك » .

عرفوه وقاموا وفتحوا له .

ودخل يتفحص كل شيء ثم وقف أمامهما صامتا كتمثال ثم نطق بعد قليل قائلا للمدرس :

ـــ أين أوراقك ؟!. « وقهقه » رأيتها هناك .. لقد مزقتها أنت ودستها أنا .. لكن السر السام الكامن فيها حركنا نحن الثلاثة .. لم يذق أحدنا النوم ..

وعندما سحب الكاتب التجارى من تحت وسادة فراشه « أوراق اللعب » .. وأخذ « يفنطها » .. بطريقة ماهرة ساخرة شعر الاثنان خلالها كأن كلمة إغراء تصل إلى آذانهم من إحدى بنات الليل .

وعندئذ هجم المحضر على صاحب الشقة وأخذ الأوراق منه ومزقها ورمى بها وداسها كما فعل فى شقة المدرس كأنه يريد أن يقتل فيها شيئا حيا .

لكنه فوجئ بأن هجم عليه الكاتب التجارى وأمسك بخناقه وهزه مهددا متوعدا . لكنه لضخامة جسمه صمد له . وهو يلهث ويغلى .

ثم جلس الثلاثة صامتين .. يد كل منهم على جبينه كمن يعانى صداعا مزمنا .. يتذكر صميم ماله الذى أكله القمار والوقت والفكر .. ويتذكر الزملاء الذين هربوا من الوحدة والمخاوف بالهوايات .. مثل ذلك الرجل الذى كان يطرز مثل النساء ويرسم مثل فنان .

ومثل ذلك الذى انتفع بالعزلة وقرأ .. وأخيرا أصبح شيئا .

قال المحضر : اسمعوا لى : أحسن مايمكن قوله هو أن يفارق بعضنا بعضا .

قال المدرس : سأطلب نقلى .

وقال المحضر : وأنا كذلك .

ورد الكاتب التجارى قائلا : أما أنا فغير ممكن بالنسبة لى أن أنتقل .. ارحلوا أنتم واتركونى .. ولا أريد ما عليكما من ديون .. فقط .. ليشتر كل منكما بدلة .. أو حذاء .. أما أنا فبعد رحيلكم .. ممكن أن أستريح .

★★★

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

كنت ساهرا أنتظر دقة جرس الباب . كل شىء فى كان متحفزا مستفزا . ولأول مرة بدأت أرى شعورى بوضوح . صعب جدا أن نعرف نفوسنا . خيل إلى أن جرس الباب يرن ثم تبين لى أن هذا كله وهم .. إنها لم تعد حتى الآن والساعة تدلف إلى التاسعة مساء والدنيا شتاء .. آه يا سميرة .. الآن رأيت ما فى نفسى . استطعت أن أنظر إلى قاع شعورى وأرى ماذا هناك . هل كنت وهما فى حياتى ؟! أرجو أن أكون مخطئا ..

ليس فى البيت خادمة . ليس هناك إلا أنا وسميرة التى لم تعد حتى الآن . قمت وأشعلت البوتاجاز وصنعت لنفسى فنجالا من الشاى وأخذت قرصا من الأسبرين .. ومضى على ذلك وقت لكننى لا أزال أحس بالصداع . ثم تبين لى لوفرة ضيقى أننى نسيت الأسبرين على المنضدة وشربت الشاى وحده .. وحملقت فى البيجاما فإذا بى قد لبستها بالمقلوب .

هناك ساعة تدق معلنة التاسعة مساء وهى لم تعد من الخارج .. عندما تعود سأعمل أشياء كريهة .. سأجرها من شعرها كما كان يفعل آباؤنا قديما وأنهال عليها ضربا . لكن .. هل يليق هذا بالمتعلمين ؟! .. غير أن اضطراب العصب ليس له علاقة بالثقافة . إن علماء النفس يصابون بالقلق وربما الجنون .. وطبيب القلب مات بالقلب . أنا أشعر الآن أننى رجل فقط .. رجل لا غير .. رجل بشارب .. لا لأننى أحمل ليسانس الحقوق . وهى .. امرأة .. مجرد حواء .. بصرف النظر عن أنها تحمل ليسانس الحقوق مثلى .. مثلى ؟!

إن سميرة زوجتى . زوجتى منذ عام واحد رأيتها صبيحة هذا اليوم تدفع ضريبة الأمومة للمرة الأولى حين استيقظت على صوت قىء متشنج فوجدتها نصف منهارة فى الحمام .

كانت قد نامت متأخرة لأن أعباء وظيفتها أجبرتها على السهر على بعض الدوسيهات لتجهز ما هو ضرورى منها لليوم التالى . أما أنا فقد نمت مبكرا رخيا مرتاحا لأن أعمال وظيفتي فى المستخدمين قليلة للغاية لا تكاد تأخذ ربع ساعة اليوم المكتبى ونمت واستيقظت ثم نمت واستيقظت وفى كل مرة كنت أتحسس مكانها فى الفراش فإذا به خال منها . كان هذا فى الليلة الماضية ... ثم جرفنى النوم كتيار الفيضان .

وعندما كانت هذه الساعة التى أسمع دقاتها الآن تعلن الثالثة صباحا دخلت سميرة تتسحب حتى لا تقلق منامي . وسمعتها ترقد وهى تتأوه . عظامها الناحلة تطقطق وأنفاسها متلاحقة .

لم أشأ أن أكلمها ساعتئذ . أحسست بشىء من العطف على أوصابها لأنها تعمل وتضوى وتذوى ويمتصها « الوحم » لكن ذلك ومض واختفى ليلفنى النوم فى دثار دافئ حتى قمت صباحا على قىء متشنج .

وها هى ذى لم تعد حتى الآن من الخارج والساعة تدق التاسعة ، وأشعر برغبة فى أن أرى منظرها وهى داخلة . تحمل حقيبة مثل ساعى البريد كبيرة مليئة بالورق وتلهث من السلم الذى تصعده إلى مسكنها فى الدور الخامس . ما لى أقول عنها هذا .. هل تغيرت نحوها مشاعرى فلم أعد أحبها ؟! لكن .. كيف ؟!

لقد قضيت ستة أشهر وأنا أعانى الأرق . كان ذلك منذ ثلاث سنين ونحن فى سنة واحدة طلبة فى كلية الحقوق . أحببتها .. من العبث أن تسألنى كيف أحببتها فقد تبين لى أن مرآة الحب ليست عمياء بل مرآة الحب تعكس دائما وجه القمر . وعندما كانت تقىء اليوم على الحوض تذكرت ليالى سهرى من أجلها . كم رأيت وجه الصباح من خلال النوافذ وكم ضاقت على ملابسى . لم أر فى تلك الأيام أنفها الأفطس ولا بشرتها الداكنة ولا شعرها الجعد . وقد

اشتبكت فى عراك بعودى الطويل وجسمى الفارع مع طالب رماها بنكتة وهى فى أحد الممرات حين همس بحماقة خلفها : « يا سلام على أنف كليوباطرة !! » .

***

سألت نفسى ذات ليلة من ليالى السهر .. أيام زمان .. ماذا أحب فيها ؟ فلم أحظ برد قاطع . قيل لى عن طريق الهواجس وأجوبة الأصدقاء وأدعياء علم النفس : إنها تكميل لك . فأنت جميل كرجل وهى غير جميلة .. وقيل لى : لعل اجتهادها فى بناء نفسها سحر قلبك لأنك تمشى فى طريق شبه ممهد بلا تعب .. وقيل لى : إنك محروم .. ولكن أقرب الإجابات إلى عقلى .. ودعك من قلبى .. هو أننى لم أوفق فى حب امرأة جميلة أبدا .. فضلا على أن سميرة كانت ذات تفوق عقلى فى الدراسة تحسد عليه من كل الناس .. وقيل لى : إن ركوعك أمام جميلات الوجوه لم يجد عليك شيئا فلما ذهب دعائى هباء فى المعبد الوثنى وأطلقت أول دعوة فى هذا المعبد السماوى « أيام الحب !! » هطلت السماء بالرحمة ورأيت فى عينيها — اللتين لا بياض فيهما إلى حد شاذ — عطفا نديا ينطق فى تلعثم .

كنا فى « بوفيه » الكلية . ولم يكن هناك سوانا .. وكان اليوم قبل وقفة عيد الأضحى .. لا زلت أذكر .. وعندما صارحتها بحبى كان أمامها فنجال من « اليانسون » تملأ رائحته الجو حول منضدة . ومجلة على غلافها رأس « كليوباطرة » .. كانت تحملق فى أنفها كأنما تجسدت أمامها الشتائم . ولكننى بعد أن أطلقت كلمة « الحب » كحمامة بيضاء رأيت سميرة وهى خارجة تكاد تطير بجناحين ... لا أنسى !!

آه .. مسكينة .. لقد تغيرت كثيرا فى هذه الأيام .. نقص وزنها واصفر

لونها الكابى كليمونة خضراء جفت على الشجرة . هيه .. أعمـالها فى التحقيقات كثيرة وثقيلة . اطلاع وتفكير وكتابة وسهر . وتحلم بمكـان مرموق حالا .. ثم « وحم » كأى امرأة فى حقول الذرة .. قىء وتشنج .

ولماذا لا أحبها الآن ؟!. إننى بانتظار دقة جرس الباب لأمسك بتلابيبها .. لكن .. هل تحتمل هجومى ؟

إنها كبروة الصابون . بقايا جهد وإنهاك . وأنا .. وزنى فى تزايد .. ومظهرى أقل من عمرى الحقيقى .. آه .. آه ..

جرس الباب يدق لقد جاءت ..

وقمت وفتحت الباب فإذا بسميرة جالسة على السلم تأخذ . أنفاسها بعسر .. أمامها الحقيبة المألوفة المليئة بالأوراق وكيس من الـورق ملىء بالخضروات .

وأشارت إلى أن أحمل هذه الأشياء فلم أمد يدى . ظللت واقفا كتمثال فزادت دهشتها . وبإحساس حواء شعرت أننى غضبان فتحاملت وقامت وحملت فى كل يد شيئا ثم دخلت إلى حجرة المكتب فوضعت أوراقها ثم إلى المطبخ فوضعت الخضروات ثم عادت إلى فى حجرة النوم وأخذت تخلع ثيابها .

ـــ تأخرت عليك .. متأسفة . عيبى أننى درست فى كلية الحقوق . ليتنى اخترت كلية أخرى .. كان عندنا تحقيق استدعى كل هذا التأخير .. لكن .. مالك لا ترد .. زعلان ؟!. سأصالحك .. لم تتعش يا حبيبى ؟!.. « فكرى » .. رد .. فالمرتاحون هم الذين يتحملون المتعبين وليس العكس ..

لم أرد . كانت قد خلعت « تاييرها » الرمادى وبدأت تلبس قميص النوم . وكانت أصابع يدها ترتعش . ورأيتها تحرك خاتما فى يدها لترى مدى اتساعه وهل سيسقط ؟!.

وجعلت أحملق فى وجهها بعدم مبالاة وأنانية . إننى أعترف .. كنت

شاعرا بشكل فادح بأننى عقدت صفقة المغبون فى زواجى هذا .. لماذا ؟! هل أنا الخاسر حقيقة ؟!.

وتأوهت هى وأنت فى ألم . ثم نظرت إلى بعينيها الغريبتين وقالت :

ـــ حالا سأعمل عشاء . إننى جائعة .. ومتعبة .. ساعة واحدة ونأكل لحما وخضروات معا .. و .. بعدها .. لن أسهر كثيرا فى المكتب يا « فكرى » .. إننى .. آ ..

عندئذ صرخت أنا :

ـــ لا أريد أن آكل .. كلى أنت .. شبعت .. شبعت .. هل تفهمين معنى شبعت ؟!.

لم أشعر أن صوتى كان مرتفعا إلا بعد أن كففت عن الكلام . فقد ساد صمت .. هدوء مستتب .. شامل . أشار إلى الضجيج الذى توقف . فغرت سميرة فمها ثم وضعت كفها على شفتى ..

ـــ فكرى .. أنت .. أنت .. تعبان .

هززت راسى لاهثا :

ـــ .. أنت التعبانة .. لا أنا .. أنا .. ليس لى عمل متعب .. ولست أحمل مثلك غرورك الذى تسمينه الطموح .. من أين ستوفرين وقتا جديدا لهذا الغريم .. غريمى !!

هتفت كالملسوعة :

ـــ غريم ؟!

صرخت :

ـــ نعم .. كل يوم تخلقين لى غريما ..

ـــ آ .. آ ..

ـــ نعم .. التحضير للدكتوراه غريم سيأكلك ويأكلنى . ليتنى أستطيع أن

رد .. فالمرتاحون هم الذين
يتحملون المتعبين وليس العكس

أقتله .

عند ذلك انهارت على كرسى الزينة . أسندت رأسها إلى ظهره كما يخبئ طائر رأسه تحت جناحه . وكنت أرى صورتها فى المرآة . عود ضئيل منطو برزت عظام كتفيه وسمعت إجهاش بكائها . لكننى ظللت منتصبا كجلاد لا يعرف إلا العطش أسائل نفسى فى فترات « عدل » تولد وتموت بسرعة كالفقاقيع لماذا أكرهها ؟! و لم أصل إلى الجواب القاطع .

* * *

قامت هى وفى عينيها دموع . ذهبت إلى المطبخ . و لم ألبث وأنا فى مكانى أن شممت روائح السمن والبصل والتوابل . تصل ممزوجة برنين الملعقة على حافة حلل النحاس . وكنت فى هذه الفترات أشعر نحوها بحب أصفى .. أشعر أن سميرة التى هناك تعد الطعام امرأة لا عيب فيها .. وأحسست بدافع شديد إلى أن أذهب إليها .. وتسللت ودخلت .. سمعت وقع خطواتى فلم تنظر إلى الخلف . ذلك دلال وانتظار أو غضب أو عتاب .. لكن ذلك هو ما حدث . وقبلتها فى عنقها . فجفلت .. ثم نظرت وعلى شفتيها الزاويتين ابتسامة متعبة حملت معانى كانت تريد ريشة رسام .. ابتسامة فيها الخوف والحب والتصميم والتعب . هى التقرير العصرى عن امرأة فى مثل موقفها .. واستدارت تكمل الطهى . قلت هامسا :

— سميرة .. لا تغضبى منى .

فلم ترد . قلت :

— إذن فأنت غاضبة .. وإذن فسأعقابك وأنام بلا عشاء .

عادت فأدارت وجهها . رأيت عليه نفس الابتسامة . فأحسست بعودة الغضب فقلت مبتهلا :

ـــ أرجوك .. لا تبتسمي هكذا ..

فقالت بجد من تكتب تقريرا فى تحقيق :

ـــ « فكرى » .. تأكد أننى لن أستطيع تغيير هذ الابتسامة إلا إذا حدث أحد أمرين ..

ـــ هما ؟!

ـــ أن أغير وضعى أو تغير أفكارك .. لا مفر ..

* * *

فتنهدت .. أحسست أن الكلام سليم . غير أننا أحيانا نصبو إلى الكلام غير السليم . ولا يشفى نفوسنا إلا الكلام المريض .

فهززت رأسي . استعدت قولها وتفهمته . لكننى .. أحسست فجأة بالكره .. اختفت « الملعقة » وحل محلها « القلم » .. ذلك الذى تكتب به وتسهر لتعمل حتى قبيل الفجر ..

وعبثا حاولت ضبط أعصابى . وعبثا حاولت أن أتفوق عليها فدخلت إلى مخدعى مصمما ألا أتعشى ..

* * *

لم أدر كم من الوقت مر على . كنت أفكر فى الظلام . أستعيد كل ما فات .. قصة حبنا فى الكلية . هل كنت أريدها لتكمل خمولى بتفوقها فلما صرنا جسما واحدا برأسين .. يعنى زوجين .. لم أر إلا رأسها الذى خطف بصرى بوميض ذكائه فضايقنى . لكن .

ورحت فى النوم .. لم أحس ما حدث . كل ما هناك وفى وقت متأخر أحسست بها تتسلل إلى جنبى فى الفراش وخمنت أننا فى الثالثة صباحا وأنها قد تعشت وعملت ثم أوت إلى مخدعها فاستشاط فى شعور حاد لا يمكن إلا أن يكون

عنادا فقمت وأشعلت نور الحجرة المتوهج ..

كانت ذراعاها على وجهها والتعب باد عليها ففتحت عينيها وسألت بهدوء فاتر :

ـــ ماذا هناك ؟!

ـــ لا شيء .. غير أنى أريد أن أعرف قصدك .. ما معنى ما قلته فى المطبخ أن « تغيرى وضعك أو أغير أفكارى » .

لم تغير وضعها فى الفراش . بدا على وجهها ملل أم أضناها صراخ طفل . لاشك أنها لا تزال تحبنى .. ومع هذه المعانى التى تكلم بها وجهها رفت فى عينيها لمحة تسامح .. مدت إلى ذراعها المتعبة وقالت بتهالك :

ـــ أرجوك .. من الممكن أن « نؤجل القضية » وقتا آخر .. تعال .. هل تحب أن أعتذر إلى من يبخل على بساعة نوم ؟!.

أطفأت النور وصدى جملتها الأخيره يملأ أذنى ... وبقوة سحرية سرت إلى قلبى صعدت إلى الفراش فاترا . وفى ظلمة الحجرة . ودفء الصوف وأنفاسها التى لامست خدى أحسست أننى أعاقب فيها فشلى .. تخلفى سنة عنها .. نجاحى بدرجة عادية .. أما هى فكانت تحافظ على أشياء كثيرة أهمها فيما يبدو من معاملتها وعدم مجاراتى فى الخصومات أنها تريد أن تصل إلى قمة نجاحها ولعلها قد اكتشفت فى صمت ـــ بينها وبين نفسها ـــ أن سر تقديرى لها كان تفوقها العقلى . فهى تقاتل فى سبيل المحافظة عليه كما تقاتل الممثلات فى سبيل سلامة وجوههن من غزو تجاعيد السنين .

وضعت ذراعها على عنقى . تريثت قليلا فلم أبادلها نفس الحركة . كنت أفكر فى هذه اللحظة فى زميلى فى المكتب .. زميل أكبر منى سنا ودرجة يأتى كل يوم شاكيا من امرأته التى وضعت لابنها قطرة لم تعرف أنها صبغة يود والتى تركته يشرب لترا من الجاز وهى مشغولة بقتل الوقت عند جارتها ..

تنهدت .. أحسست أنى أعادى فيها شيئا لم أحاول تحقيقه لنفسى . فربتت على خدها فإذا بالندم قد أخذها منى تماما . وإذا بالساعة المعهودة تدق الثالثة ..

ودق قلبى فى تعاطف .. حكمت بالعدل لأنها نائمة .. فلم تكن طرفا فى القضية . شعرت كأننى أتكلم وحدى ..

أترافع وأحكم .. أنا الخصم والحكم ..

ثم رحت فى النوم ..

وفى الصباح الباكر استيقظت على نفس الصوت . ضريبة الأمومة .. القيء المتشنج .. فهببت من فراشي وقمت إليها أسندها .

ثم عادت تبتسم . عتاب وتعاطف ونهى عن الظلم .. بسمة تريد رساما .. تحمل ملامح امرأة حديثة . وفى طريقنا إلى الحجرة رأيت مائدة أمس .. كان عليها أطباق مغطاة .. رفعت أغطيتها فإذا بالعشاء الذى أرادت أن أشاركها فيه — قد بات دون أن تمسسه يد ..

هفوت إليه بسرعة . كانت فى المطبخ تريد أن تعد شيئا للفطور .. وشايا . فقلت :

— سميرة .. هل نمت بلا عشاء ؟!

نظرت إلى وقالت :

— هل ترى ذلك على وجهى ؟!

— بل رأيته على المائدة .. أما وجهك .. آ ..

و لم أكمل لأنه كان شاحبا جدا إلى حد أننى أحسست أننى ساهمت ليلة أمس مع متاعب العمل فى كل ما جرى لها ..

أما اليوم فإننى سأحاول أن أفهمها من جديد .. أرجو أن أنجح ..

* * *

ظلال الليل

الأكوام المتباعدة المغطاة بقش الأرض يفصل بين الواحد منها والآخر مدى ليس بالقصير . على رقعة الحقل السوداء المحروثة تحت جنح ليل شهر « يناير » وليس فى السماء قمر ولكن .. فيها سحاب .

وعند سفح أحد هذه الأكوام رجل ساهر . خبت أمامه النار التى أشعلها فلم يبق منها إلا الرماد . و لم يبق معه سيجارة واحدة يدخنها تساعده على السهر والحراسة عند أكوام البطاطس . وحتى علبة الثقاب بللها ندى الليل . بعدما نسيها إلى جواره فلم يعد جنبها الأسود صالحا للإشعال بسهولة . وليس فى الحقول صوت . لا ضفادع فى الشتاء ولا ناى ولا أرغول . كان الريف داخل ضمن ما يسمى « البيات الشتوى » ولو كان هناك قمر ما غاب السحاب .. وكل شيء مستكن . سوى صوت واحد يصل إلى أذن هذا الرجل هو صوت ماء ينصب فى خمول من حقل مرتفع فى مصرف ماء منخفض ينصت إليه الرجل قليلا ثم يعود إلى أفكاره ..

تمنى أنه لم يزرعها هذا العام . إنه فلاح بسيط لكن حبه للتجربة دفعه إلى أن يزرع هذا الفدان . على حين أن أحدا من جيرانه لم يقدم على هذا . لكنه على كل حال ضامن لرأس المال . لكن سهره فى نظر نفسه يساوى الدنيا وأرضها . لأنه مريض بالكلى وليلة واحدة من هذا النوع ربما أودت بحياته . فضلا عن شيء آخر هو أنه بانتظار ابنه .. لقد وعده بأنه سيتعشى ويعود ليأخذ مكانه فى الحراسة ويرجع الأب إلى الدار لينام فى الدفء لكن ... شيئا من ذلك لم يحدث . وها هو ذا الأب لا يزال فى مكانه فى ظل تلك الكومة الكبيرة المغطاة بالقش . والتى تبدو فى الظلام لعينيه على هيئة تل من الرمل أو جمال رقدت بلا صوت .

وأخذ الأب يفكر : لماذا لم يعد ابنه ؟! ومن خلال ضيقه منه وقلقه على عودته وأيضا من خلال وخزات خفيفة لمست جنبه الأيسر — تصور أن ابنه غارق فى سعادة أنسته والده .. والحقل .. والمحصول .. والحراسة . ثم .. تصوره غارقا فى النوم بعد ذلك فى الحجرة الشتوية الخالية من النوافذ تلك التى يدفئ جوها بخار الحساء فى أول الليل ثم بخار الماء البائت على الفرن ليكون تحت أذنه فى الصباح .

وتنهد الأب . وأرهف سمعه .. تمنى أن يصل إليه فى الظلام البارد صوت ما . ولكن صوت الماء المنصب فى المصرف كان قد سكن .. وهمد كل شيء . فشعر بتوتر السكون وضجة الصمت . فتنحنح وخيل إليه أنه على وشك أن يغنى أو أن يقرأ دعاء . لكنه خجل وتحسس جنبه وهو ملفوف بغطاء من الصوف الثقيل وتحسس عصاه الغليظة ثم تحسس قلبه . لمس صدر نفسه لأنه شعر بالخوف . شعر رأسه كان يقف كأنما عاد طفلا يجسم كل ما سمع من حكايات الجن والذئاب والثعابين لكنه .. ليس الآن طفلا . إنه فى الخمسين من عمره . وعلى كفه الخشنة نضجت وجمعت ملايين الثمرات . ليس البيات فى الحقل بالنسبة إليه شيئا مخيفا . فقد قذف به والده فى هذه المعمعة وهو صبى لم يتجاوز العاشرة .. سهر فى حراسة الذرة و لم ينم من الخوف .. وها هو ذا الليلة كأنه نفس الطفل .. والدنيا سكون ..

وألفى نفسه يغنى أغنية كان أبوه يرددها وهو جالس عند الساقية وبين كفيه حبل يفتله . وعندما سمع صوت نفسه دهش . إنه محشرج كئيب . وعلى كل حال فإن سماع المرء لصوت نفسه أمر يوجب الخوف كالتائه فى الصحراء أو المنادى ولا مجيب .

عندئذ قرر أن يقوم من مكانه . وكان قد فقد الأمل فى عودة ابنه إليه فنهض . واتجه نحو الجنوب ليلقى نظرة على بقية المحصول . لكنه لم يسر بضع

خطوات حتى أحس بشىء غريب . أحس كأن أحدا يشد طرف البطانية التى تغطيه وهو سائر . لكن هذا الإحساس لم يستول عليه بل تخلص منه ببساطة حين استرد طرف غطائه مما يشده . وكان همه كله أن يمر ويعود ليستغرق فى النوم بعدما فقد الأمل فى رجوع ابنه إليه .

واستمر فى سيره . لكنه بعد برهة شعر بأن شيئا ما قد تشبث بطرف غطائه كأن يكون وتدا مثبتا فى الأرض فشبكت به أطراف الغطاء . حاول الرجل أن يخلصه فإذا به يتحرك وراءه .

عندئذ أخذته الدهشة . أحس كأن يد طفل تعابثه فالتفت خلفه فإذا بأسطورة الحقل والحراسة تتكرر . حين وجد نفسه وحيدا فى الخلاء أمام ذئب كان ممسكا بطرف غطائه كأنه ينبهه لوجوده فى الحقل .

و لم يكن مع الرجل إلا هراوة غليظة . وحتى لو كان معه بندقية فإنه لابد — كما هو معروف — أن يتردد ألف مرة فى أن يطلق عليه النار

وللوهلة الأولى شعر بحاجة إلى الاستغاثة لكنه استكبر ولأنه كان على علم بأن صوته سيفنى فى المزارع ولن يصل إلى أحد .. فالفلاحون أنفسهم فى « البيات الشتوى » فى الحجرات المغلقة التى لا يصل إليها صوت حتى ولو كان صادرا من ساحة الدار .

وتذكر ابنه وهو ينظر إلى عدوه المسترخى فى قوة الزمبلك ثم تذكر ما كان يحكيه الفلاحون عن أمثال هذه المواقع فحاول جاهدا أن يظهر عدم المبالاة لأنها أول خط من خطوط الدفاع أمام هذا الوحش .

واستمر يمشى لا ينظر وراءه . وكان الذئب بطبيعة الحال يتبعه خطوة بخطوة لكنه لا يسمع وقع أقدامه . بل كان يعرف ذلك بين الحين والحين من شده للغطاء فى مداعبة ثقيلة .

وعندما وصل إلى آخر الحقل فكر فى مواصلة السير نحو الدار لكنه وجد

أن البقاء أقل مخاطرة فإن عودة ابنه التى لا تزال محتملة « على الأقل فى هذه اللحظة » منجاة له من الخطر ، ثم هناك وسائل للدفاع لا يمكن أن يستعملها وهو سائر لذلك ولى وجهه عائدا إلى حيث كان يمشى فى طمأنينة جعلت الذئب يقعى على مقربة من الطريق وكأنه يفكر فيما سيفعل .

واتجه الرجل إلى الشمال وتركه خلفه . كل خطوة يخطوها يتخيل بعدها أنه سيثب فجأة على كتفيه . لكن شيئا من هذا لم يحدث . وحتى طرف الغطاء لم يشد . حتى وصل الرجل إلى مرقده الأول . ولم يتفاءل بل جلس يستعيد كل وسائل الدفاع فهو يعلم تماما أن الذئب يستكشف الطريق قبل أن يعود إليه حتى إذا ما تأكد أنه خال من رائحة إنسان نزل إليه فى الحقل .

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بدليل أن قطار البضاعة المعروف يمر على شريط السكة الحديد من بعيد ويقلق السكون كمبان تتداعى على نظام واحد . وأخذ الرجل يفتش عن مكان فى علبة الكبريت .. مكان جاف يشعل فيه عودا بعد أن كوم أمامه شيئا من الحطب .

وفجأة اشتعل العود وأضرمت النار وبدأ نورها المتحرك يقع ثم ينسحب تباعا فوق المرئيات ومن فوقها . وتنهد الرجل ارتياحا ونظر خلفه فإذا الوقود كثير . وإلى أن ينفد سيحدث شىء ما فإما أن يجىء ابنه وإما أن يطلع الفجر وفى أحد الأمرين نجاة له .

لكنه نظر فإذا حمرة اللهب تقع على وجه الذئب . ولف الذئب ودار ثم عاد إليه وأقعى على مقربة منه . وكان يعرف أنه من المحال أن يفترس المتربص له ما دام ساكنا أمامه ويعرف أنه يخاف من النار والماء فقرر ألا يتحرك وألا يجعل النار تخبو .

لكنه رأى فى تربصه شيئا مخيفا فأخذ يقذف بكرات من الطين يصنعها من

وجد نفسه وحيدا فى الخلاء أمام ذئب كان
ممسكا بطرف غطائه كأنه ينبهه لوجوده فى الحقل .

الأرض الرطبة وبقطع من النار يمسكها بكفه فلا يحس بلهبها . وكان الذئب يحيد عنها فلا تصيبه بمرونة وخفة تبعث الخوف فى القلب أكثر وأكثر .

وبعد عدة مرات أحس أن عضلاته بدأت تتحرك وهو مكانه وأحس كأن تيارا من الغضب سرى فى جسم الوحش فقرر أن يكف قليلا عن رميه بالجمر . ولكى يبدو له أكثر طمأنينة ليقضى على خطته سحب رغيفا من الخبز وأخذ يقضم منه . يحرك النار بيد ويقضم الخبز بيد أخرى وعندئذ بدا على الذئب شيء من القلق كأنما شعر أن عدوه غير مبال به فدار حول نفسه عدة مرات وعاد واقفا ينظر إليه لكن الرجل رمى إليه بلقمة من الخبز مال إليها والتقمها ثم عاد ينظر إليه بعينين باردتين تقولان فى وحشية صامته أن الوقت أمامنا طويل .

وفكر الرجل : لو أنه رمى إليه بالرغيف لأكله ثم عاد إلى مناوشته وكأنه لم يفعل شيئا .

وعندئذ فقد الرجل صوابه . . لم يحس بالطريقة الغريبة التى يتحول بها الإنسان إلى وحش . لم يشعر بما حدث منه . كل ما أتيح له أن يشعر به أنه مد يده إلى طبق من الصاج كان فى سفح الكومة . دسه تحت النار فى سرعة ووثب به فجأة على وجه الذئب ورماه به .

ولم ير ما حدث فقد كان كل همه ألا تنطفىء النار ولو أمدها بغطائه الصوفى . . ولو أمدها بكل ما يغطى المحصول من قش ولو أن بعضه ندى لا يصلح للوقود وكان عليه أن يتحصن بها وكان فى هذه اللحظة يميل مرة أخرى ليملأ الطبق بنار جديدة لكنه فوجىء بأن سمع عواءه شاكيا وهو يولى الأدبار .. عواء وحشى مجروح فأيقن أن النار قد مست عينيه إحداهما أو كلاهما . فجرى وهو يعوى . . حتى دخل فى منطقة الظلام فلم يستطع أن يحدد موقعه بعد أن انقطع عنه صوته .

لكنه فكر بحيلة الفلاح . . ربما يكون رابضا فى مكان قريب لكن الوقت مر ولم يعد .

وأحس كأنه يحلم لكنه فتح عينيه . رأى نورا خفيفا يبدد ظلمة الأفق . ونجوما تتوارى . ونجوما ظهرت لم تكن فى السماء من قبل . أدرك أن الفجر قريب وأن النور على وشك أن يظهر وأنه قد نام وهو جالس وقتا من الزمن .

وسرت الطمأنينة فى أوصاله عندما أحس هذا الإحساس وسمح لجسمه أن يستلقى على كومة البطاطس لكن عينه لم تغف فقد شعر بأن إنسانا ما على مقربة منه فى الجانب الآخر من الكومة يحسر القش عن المحصول برفق لكى يسرق منه شيئا .

ولم يشأ أن ينهض . . ظل راقدا كما هو مستمتعا بما يحدث قائلا فى نفسه : « إنه سيأخذ مقدار ما سيحمل ولا شك فى ذلك .. فليس معه عربة ولا جمل ..وابتسم .. ومن أجل هذا جئت أصارع الذئاب بالليل ؟ » .

وظل ينصت حتى انقطع كل صوت فأخذ يحملق بما يتيحه له نور النجوم فرأى رجلا يحمل جوالا صغيرا على كتفه وقد سار يعرج به . فعرف من يكون . . إنه سليمان الأعرج المهرج المشهور فى القرية والذى يحيى لياليها وأفراحها بالضحك .

ولما رآه تذكر الذئب . . والصراع الذى قام بينه وبينه طوال الليلة الماضية وسأل نفسه عن السبب فسمع صوتا فى داخله يقول : « لو أن هذا الذئب استطاع فى الليلة الماضية الحصول على زوج من الأرانب من إحدى الحظائر » .

لكنه أمسك عن التفكير فقد كان الأعرج لا يزال على مقربة منه . فقد عثر فى شىء ما فسقط بالكيس وسمع سقطته على الأرض . . وحدثته نفسه أن ينهض ليأخذ بيده فى رفق وسخرية ثم يزيد من حمله لكنه أحس بآلام شديدة

فى جنبه تكاد تمنعه عن النهوض فعاد مستقرا حيث كان . وأخذ الأعرج يجمع ما سقط منه وعاد يواصل السير .

وكأنما كانت هاتان الحادثتان مخدرا قوى السطوة نام بعدهما الرجل نوما عميقا . فلم يشعر بنور الشمس ولا أصوات الناس فى الحقول . بل كان مثل نائم فى كهف . ينتقل من حلم إلى حلم وكل أحلامه تدور حول أفواه مفتوحة .. بعضها لسمك وبعضها لجمال يطعمها أصحابها وبعضها لطفل مدلل تطعمه أمه وبعضهالطفل آخر يبكى ويلتفت .

وأخيرا .. الذئب يتربص على مقربة منه .

فاستيقظ مذعورا.. كان نور النهار وأشعة الشمس تفرش الدنيا ببساط من الذهب والدفء يشع فى كل مكان وحبات الندى على قش الأرز تلمع فى تألق ماسى يتنافى مع جفاف القش . والخضرة فى الحقول زاهية لا تعترف بآلام أحد ..

وتذكر الأب كل حوادث الليلة الماضية ونهض وتمطى لكنه عندما تذكر أن ابنه لم يعد إليه حتى هذه الساعة بدأ قلبه يخفق فى قلق أنساه حنقه عليه .

وعند باب الدار لقيته زوجة ابنه وعلى وجهها اعتذار وانكسار .فقد كانت فى الطريق إليه لتطلب منه العودة لأن ابنه بات صريع الملاريا طوال الليلة الماضية .

— منذ متى ياسكينة ؟

— ذهب إليك أمس بعد العشاء . فقطع عليه الطريق ذئب فنزل إلى الترعة لكى ينجو منه وعاد إلى الدار خوضا فى الماء العميق حتى إذا وصل إلى القرية حرسته الكلاب ورجع الذئب لكنه بات محموما طول الليل .

نظر إليها الأب نظرة طويلة لم تطرف معها عينه فظنت الشابة أن الأب يتهمها بما وسوست به نفسه فى الليل . ثم ابتسم الأب فسألته سكينة :

— ماذا يا أبى ؟

فاجاب :

— لاشىء .. لم يكن هناك ما يستحق كل هذا العذاب .

* * *

وفى هذه اللحظة مر عليهما سليمان الأعرج يعثر النكت فى كل اتجاه وألقى التحية بمودة وشوق .

فرد الأب عليه التحية ..

ثم دعا الله من أجله ..

زفاف إلى الجنة

فى قريتنا رجل غنى وحيد يأكل بملاعق من الفضة ويدخن فى « مبسم » من الذهب . ويحاول دائما وهو يدخن أن يتشاغل بعمل ما أمام الناس فى « المضيفة » لكى يهمل مبسم السجاير بين أسنانه وتكون هذه الحركة الأولى لتعقبها حركة ثانية ضرورية ولازمة ترضى فى نفسه نزعات حاولت أن أفهمها فلم أستطع . فهو عندما يهمل مبسمه الذهبى ويضغط عليه بأسنانه نراه وقد ضحك لأى سبب . وهنا يشتغل فمه بريقا . . لأن له عدة أسنان قد كسيت بطرابيش من « البلاتين » وتلتقى المعادن النفيسة كلها فى فمه . . فضة وذهب وبلاتين . لكنه حين يتكلم يظهر التناقض جليا بين ما يدخل فى فمه وبين ما يخرج من فمه .

لكنه مع ذلك لا يعدم جلساء أفاضل . بعضهم سماسرة حبوب وبعضهم تجار مواشي وبعضهم زراع خضروات . وأخيرا . . فيهم شاب حديث السن مشهور بطول اللسان . كأنما اختاره هذا الرجل الغنى ليكون فى هذه المجموعة الموافقة له سلفا على كل ما ينطق به — اختاره ليشعر بلذة هجوم الآخرين عليه ممن التفوا حوله لمصالح متقابلة أو قرابة أو مصاهرة .

وكثيرا ما سأل الناس أنفسهم : لماذا يكلف « محمود » نفسه عناء الجلوس مع هذا الرجل ما دام الخلاف فى الرأى بينهما لا يغيب . لكن « محمود » كان يأنس فى نفسه القدرة على تغيير شيء من سلوك هذا الرجل وفى الوقت نفسه فإن الرجل نفسه كان واثقا أن المستقبل معه فهو حتما فى يوم ما سيطفيء حماسة هذا الشاب وسيجعل خلافاته وآراءه أشد إيغالا فى القدم من « عزوز » سمسار الحبوب و« جابر » تاجر المواشي و« عبده » زارع البطاطس .

وبما أن ليل الريف شهير بالطول فكثيرا ما يذهب الناس لكى يقطعوا هذا الليل إلى أماكن قد لا يحبونها كثيرا . لذلك فإن مضيفة هذا الرجل لا تلبث بعد المغرب بقليل أن تمتلىء بكثير من الناس . وهناك يدور أحد الفلاحين المسنين بصينية صف عليها أقداح الشاى الصغيرة وترتفع رشفات الفلاحين فى المضيفة أزواجا وأفرادا تحت طبقة رقيقة من دخان السجاير وطبقة كثيفة من النوادر والضحكات .

وفى ليلة من الليالى المائلة إلى البرودة . الشديدة الظلمة المنذرة بالمطر . وبعد مرور ساعة من الزمن على اجتماع الفلاحين فى المضيفة هتف صاحب المضيفة من بين أسنانه البلاتينية ومبسم السجاير الذهبى حبيس بينها — هتف سائلا الجمع :

— الله ! .. ألا تلاحظون الليلة شيئا على مجلسنا يارجال ؟ !

وتلفت الجالسون فى كل ركن . . نظروا على كل كرسى وكل كنبة ثم نطقوا . . نطق منهم ثلاثة أو أربعة قائلين :

— آه . . « محمود » غائب يا أبو عاشور !!

فضحك وضحكوا ورد صاحب الدار معلقا بطريقة من يلذ له أن يصارع الخصم طويلا ثم يقهره :

— الجلسة الليلة فاترة . . ينقصها هذا الولد . . إن شغبه هو الفلفل الذى يوضع على السلطة . . يجعل للمكان طعما . . ربما كان حراقا لكنه . . لذيذ !!

وأمن على هذه الحكم مع طقطقة حبات السبح كل من سمسار الحبوب وتاجر المواشى . فقد كانت الذرة الصيفية على وشك أن تقطع وأبو عاشور فى حاجة فى هذه الأيام إلى شراء ثور جديد . .

لكن . . ما لبث الحاضرون أن انتبهوا إلى حدث وقع . . إلى محرك سيارة

يتوقف على مقربة من الدار ثم ساد صمت . . وعندئذ أخذ قلب عاشور يدق بعنف . وأخذ كل رجل من الجالسين يتذكر جرائم القرية . وغطى القلوب وجل وبدأ الجمع يتحدث بالنظرات . . وأخيرا تحرك أحد الجالسين وفى نيته أن يخرج ليرى ماذا هناك وعندئذ حال بينه وبين رغبته صاحب الدار معلنا بصوت لم يخل من الرعشة أن « من دخل فيما لا يعنيه لقى ما لا يرضيه » . .

وعلق أحد الجالسين قائلا : إن الشر أو الخير إذا كانا على الباب فلابد أن يدخلا . .

و لم يكد الرجل يتم عبارته ويأخذ جلسته الأولى المستريحة على الكنبة حتى أبصر الجمع بالشاب « محمود » يدخل من الباب . ولما رآه صاحب الدار سارع بسؤاله عما هناك فما كان منه إلا أن ألبس الموقف ملابس ضافية ومثل دور من يشعر بخطر مفاجىء قائلا لصاحب المضيفة :

— إنه « بوكس » الحكومة يا أبو عاشور وقف هناك على بعد مئتى متر من بيتك ونزل من فيه . . لم أر شيئا يدعو إلى الخوف . . لكنهم على كل حال يتهامسون هناك .

كان الشاب يعرف ماذا هناك لأنه سمع مادار بين الرجال الذين كانوا فى سيارة الحكومة . لكنه لم يشأ أن يبوح به للجالسين فى مجلس أبو عاشور وكان عاقدا عزمه على أن يرى صاحب المضيفة وهو عار من جاه ماله الذى يرتديه أو يخلعه عليه بعض مجالسيه . وجلس الشاب بينهم يتلفت حتى أوهم الجالسين بقرب قدوم خطر ثم ما لبث الجالسون أن سمعوا أحذية ثقيلة لعساكر يتقدمهم مأمور المركز فى ملابس مدنية دخلوا على الجالسين فى المضيفة وسلموا وقعدوا . وقام صاحب البيت يدور بعلبة السجاير ودخل عليه الرجل المسن الذى يعمل القهوة فطلب صاحب الدار شايا وقهوة وقرفة على ثلاثة أدوار . ثم تعالت فى المجلس بعض سعلات وتحنحات ما لبثت أن خفتت

ومثل دور من يشعر بخطر مفاجىء . .

(حافة الجريمة)

ليظلل الصمت . وأخذ« محمود » يحملق فى صاحب الدار ذلك الرجل المتكبر على طريقة أهل الريف الذى يأكل بملاعق من الفضة ويدخن فى مبسم من الذهب ويكسو العديد من أسنانه بطرابيش من البلاتين . نظر إليه فألفاه جالسا وقد غمره الخوف فى الوقت الذى سمع فيه أحد الخفراء يجرى إلى قرية أخرى مع أحد العساكر فى مسيرة ربع ساعة . ولم يكن أحد يعلم إلى أين ذهبوا . وبدأ المأمور يتحدث بطريقة رجل يريد أن يبدد الوقت .. رجل مشغول بما هو أهم ولا يزال فى انتظاره ووقته لم يحن بعد . لكنه سيحين بعد قليل . فتحدث عن المبيدات الحشرية وخرام البطاطس وعن جمال الأمن فى ربوع الريف وأسعار السكر ورؤية هلال رمضان . . . أشياء دون العادية وحديث لا هدف له إلا قطع الوقت لكن أبو عاشور لم يكن يصدق كل هذا . حتى تصور أنه ارتكب جريمة . وقال « محمود » متعمدا :

— هل قرأتم حادثة اليوم فى الجرائد ؟!

وردت أصوات كثيرة :

— لا . .

ونظر إليه المأمور فألفاه شابا يختلف فى مظهره عن الجالسين جميعا وكانت كلمة « حادثة » بطبيعتها جديرة بأن تلفت نظره كرجل من رجال الأمن . وبعدها سأل الشاب قائلا :

— ما هى ؟ . . لعلى لم أقرأها يا بنى ؟!

— فى إحدى قرى شمال الدلتا ادخر رجل ثلاثة آلاف جنيه فى قدر من الفخار . .

قاطعه صاحب الدار هاتفا بسرعة :

— وسرقت ؟ !

فرد الشاب :

ـــ لا . . شب فى بيته حريق فانشغل عن الهرب بالبحث عنها . . وأخيرا حملوا بقية النقود . . بقايا غير صالحة للاستعمال .

وعندئذ بدأ المأمور يعلق على الجرائم التى تحدث عادة من أمثال هذه التصرفات عن الأموال المدفونة والنفوس الشحيحة وأطنب فى الحديث فاضطرب قلب الغنى وأخذ يفكر فيما عسى أن يعمل لو حدث له نفس الشىء جريمة أو حريق .

وكان الشاب يضحك محاولا أن يعيد تفاصيل دقيقة لهذه الحادثة التى اخترعها ليفسد على الرجل أمنه وهو فى ساعة خوف واضطراب قلب .

ثم ما لبث المأمور أن خرج بعد أن أصلح أحد الميكانيكيين خلل السيارة التى توقفت مصادفة على مقربة من دار أبو عاشور وبعد أن ذهب أحد الخفراء لإحضار الميكانيكى .

* * *

وبعد هذه الحادثة لسبب أو عدة أسباب كف صاحب الدار عن مقابلة الناس . شعر بميل إلى العزلة . . أحس أن أمنه وماله سيكونان نهبا للناس والنار واستوطن فى قلبه هذا الشعور وأخذ رواد المجلس يسألون عنه من وراء الباب ثم يعودون . إنه يشعر بقرف ولا يريد أن يرى أحدا . ثم تحولت هذه الحالة إلى مرض حقيقى جسمانى . ثم عاده الطبيب وبدأ الناس يعودونه فى فراشه . . فوق فى الدور الأعلى . . . ولأنه بطبيعته لم يعتد مثل هذه الأحوال فقد دخل فى دوامة حتى أن الأرض كانت تدور به كلما داسها بقدميه .

وبدأ يشعر بالجزع . اعتراه خوف لا مثيل له . وتذكر أمواله المدفونة وحاول أن يرشد إليها أبناءه لكنه خاف أن يطول به الأجل فيقع فى مشكلة أنهم عرفوا مكان المال . ثم . . صمم أخيرا على أن يسكت . . لكنه عاد فخاف أن يفاجئه الموت وتظل الأرض صامتة لا تنبىء عن مكان المال . . وفى أخريات

إحدى الليالى بعد أرق الألم أخذته سنة من النوم .. شعر أن الفراش يهتز به مثل أرجوحة طفل .. غمره خوف شديد لم يدر حقيقة مصدره . . لعله حلم . .إنه يحفر بكلتا يديه والعرق يتصبب منه ليطمئن على ماله المدفون . . حفر . . ونسى أنه مريض فخر متعبا بجوار القدر . إنه يحاول أن ينادى لكن الصوت يخرج من فمه عاجزا عن أن يسمع أحدا . وها هو ذا يشعر بالظمأ الشديد فخيل إليه أن القدر ملىء بالماء لكنه عندما وضع شفتيه على شفة القدر وجد فخارها خشنا جافا قاسيا . . وتمنى فى هذه اللحظة لو يتحول ما بداخلها إلى ماء حتى يشرب . . شربة واحدة . أو يرتوى .

وسمع طلقا ناريا أيقظه من عذابه . كان من أحد خفراء الليل الذين يحرسون حقوله . وجلس فى الفراش يفكر فى سنه المتقدمة وحرصه ودورانه حول نفسه . . وفى كل حجرة من الحجرات السفلى فى داره زوج وزوجة . . هم أبناؤه ينتظرون أن تزف إليهم البشرى فيقابلونها بالعويل . . ذلك شىء تقليدى . ولو استطاعوا غير هذا لفعلوا . وفكر . . لماذا يحنقون على ؟! ثم فسر لنفسه أفكاره فكل الناس عنده إما غيور وإما حاقد وإما منافق . . وإما . .وارث . كلهم أعداء . لكنه شعر بشوق إلى الصحة فلو أنه عاد سليما معافى لفعل أشياء رائعة ترضى الله وتسر الصديق وتكمد العدو .

وبحث عن القبلة . . . واتجه إلى الله ونذر له نذرا إن شفاه ليفعلن فى سبيله شيئا يرضاه . . .شيئا غريبا نادرا .

وكان فى حقيقة نفسه راغبا فى الحياة . لم يدع نفسه تستسلم نهائيا للمرض . تعلق بخيط نجا به ولو أنه كان واهيا جدا . .لكنه نجا . .

* * *

وما لبث النور أن عاد إلى المضيفة . جلس أبو عاشور بين أصفيائه تاجر

المواشي وسمسار الحبوب وزارع البطاطس يضغط بين أسنانه البلاتينية طرف المبسم الذهبي ويضحك من بين أسنانه وجمرة سجارته تتوهج محاذية لأرنبة أنفه . وتكلم :

ــ خمسة شهور يا رجال منذ مرور « بوكس » الحكومة على هذه المضيفة . . خمسة شهور وأنا مريض . . من كان يظن ؟!

ــ سلامتك يا أبو عاشور . .

وتلفت . كان مثل رجل يريد أن يفضي بسر لأحد . شعر الجميع بأن شيئا يثقله . وعندما فرغ من قياس المضيفة بعينين سأل :

ــ أين الولد الشقي « محمود » ؟

ــ هل حننت إلى المشاكسة من جديد « وضحك الذى يتكلم » الحمد لله فذلك دليل على اكتمال الصحة يا أبو عاشور .

وعادت جمرة السجارة تتوهج ثم أخرج الرجل مبسمه من فمه المليء بالمعادن النفيسة ثم قال :

ــ من منكم جرب المرض حتى الوقوف على حافة الموت ؟ .

فلم يرد أحد . كأنما الجميع قد خافوا من فأله السيىء غير أنه استطرد قائلا :

ــ لقد نذرت لله نذرا هو إن شفاني أن أعمل عملا عظيما يسر عباده أجمعين . ما رأيكم ؟!

عندئذ إرتفع صوت شاب منطلق جميل النبرات يحيي الجالسين ، وهللوا حين رأوه :

ــ ها هو ذا شيخ المشاغبين « محمود » . .قد حضر .

وسلم الشاب وجلس . وأعاد الرجل ما كان يقوله . وبدأ يأخذ الاستشارات فقال تاجر المواشي :

ـــ أحسن شيء يعمل يا أبو عاشور هو أن تشترى عجلين سمينين وتذبحهما وتوزع لحمهما على سكان القرية .

وهز الرجل رأسه يتشرب الفكرة وتغامز الحاضرون :« بارك الله فيمن نفع واستنفع » ، وكان صاحب الدار لا يزال فى صمته .

ونظر الشاب« محمود » إلى تاجر المواشي وقال له :

ـــ يقول المثل : « عشوة ليلة قريبة من الجوع » يعنى ممكن أن يستغنى كل فرد من الذين سيهدى إليهم عن هذا ويحول المبلغ إلى مشروع نافع للناس .

عندئذ ارتفع صوت سمسار الحبوب قائلا :

ـــ تاهت ولقيناها . . إن المولد النبوى على الأبواب فلماذا لا أشترى لك بضعة أرادب من الأرز وتوزع على كل دار منها قدحا بمناسبة شفائك ومولد النبى ؟! يأكلون ويدعون لك !!

وهز صاحب الدار رأسه يتشرب الفكرة . وتغامز الحاضرون وكان صاحب الدار لا يزال فى صمته . ونظر الشاب إلى السمسار وقال له :

ـــ إنكم لا تذكرون إلا أنفسكم .

وفى هذه اللحظة دخل الفقيه الكفيف عصاه تسبق خطاه وفمه يهمهم بما لا يسمع ولما تناهى إليه عن طريق وشوشة أحد الذين جلس إلى جوارهم مادار فى المجلس قبل حضوره ضحك ضحكة عالية كانت بمثابة نداء لصاحب الدار فقال أبو عاشور :

ـــ خير . . هذا الضحك سببه خير يا شيخ رضوان إن شاء الله .

ـــ لفرحي بشفائك . . آه . . لو سمعت كلمة عبد فقير ما دمت تستشير عباد الله . . توكل على الله وابن مسجدا . .

هز الرجل رأسه يتشرب الفكرة وأشعل سيجارة جديدة فى المبسم الذهبى ودسه بين ثناياه البلاتينية وظلله الصمت وتغامز الحاضرون ورفع « محمود »

عقيرته قائلا :

ـــ إن المساجد لله يا شيخ رضوان . . وعندنا فى قريتنا الصغيرة اثنان منها . .لكنك لم تختلف كثيرا عن سمسار الحبوب وتاجر المواشى لأنك تبحث عن نفعك الشخصى . .

وانطلق الفقيه يشتمه :« إنك تهرف بما لا تعرف . . ماذا لو كان عندنا مائة . . أقسمت بالله ما أنا جالس فى مكان يجلس فيه الصغار أمثالك » .

وخرج . وبدأت تعليقات متناثرة قطعها« محمود » بشجاعة قائلا للرجل :

ـــ ابن مدرسة تعلم فيها أبناء بلدك . بلدنا صغير وفقير وليس فيه مدرسة واحدة . . أولادنا يذهبون إلى القرى الأخرى فى حر الصيف وبرد الشتاء .

رد السمسار وتاجر المواشى ورجل ثالث فى نفس واحد :

ـــ وأنت الآخر تبحث عن مصلحتك الشخصية لأن أحد إخوتك غرق فى العام الماضى وهو فى طريقه إلى المدرسة البعيدة . تمام ؟!

وعندئذ قام الشاب ثائرا ونظر للرجل الغنى وقال بأعلى صوته :

ـــ أتريد أن تعرف ؟ . . ابن سجنا إذا استطعت فذلك أقرب شىء إلى ميولك .

وخرج .

* * *

رأى سكان القرية فى شهر أغسطس عمالا كثيرين قد حشدهم أبو عاشور يعملون على نفقته . واجتمع الناس يسألون عن الخبر . .إنهم يردمون قطعة من الأرض منخفضة عن المزارع يتجمع فيها ماء الرشح فى أواخر الصيف بعد موسم الفيضان .وفى نهاية هذه الرقعة تقع مقبرة القرية .

وعندما يكون الفيضان عاليا قد يحدث أن يخوض الناس بموتاهم ماء الرشح

إلى المقابر التى قد تكون نشعة أيضا .

لذلك فقد فكر « أبو عاشور » فكرة إنسانية هى أن يبنى عدة مقابر لله تعالى . .

فجلب العمال والبنائين ليردم وليبنى مقبرة على الأرض الجديدة . على أن يكون له فى وسطها بناء مزخرف مرتفع تظلله أشجار التوت والنخيل .

ولغط الناس بالخبر واختلفوا . ذهل بعضهم وضحك بعضهم ونقم بعضهم . لكنه كان واقفا بعصاه ومبسمه الذهبى يرقب سير العمل ويقول : إنه يبنى بيوت الآخرة له وللناس . . .

ورد أحد العمال ساخرا :« من مالك افعل ما بدا لك يا عم أبو عاشور » . .

وبعد أن سار العمل خطواته الأولى لتقوم المقبرة الجديدة التى شرع فى بنائها وافته المنية فجرى الأبناء نحو المكان ليوقفوا المشروع . ثم حملوا جثته إلى المقبرة النشعة وخاض الفلاحون بها ماء الرشح لكى يزفوها إلى الجنة .

لكن القدر التى كانت تحوى كنوزه ظلت الأرض مطبقة عليها ساكنة خرساء لا يعلم مكانها إلا الله . .

الأم الثانية

فى صبيحة أيام العيد تكون القطارات الذاهبة إلى المدينة والراجعة منها مزدحمة بالناس أكثر من المألوف . . وفى القطار الداخل إلى العاصمة فى صبيحة هذا اليوم ركاب وضجيج وملابس وبالونات وأمتعة أهمها « الأسبتة » تفوح منها رائحة الفانيليا أو الفواكه أو رائحة الفطير والخضروات . وكل هؤلاء القادمين من الريف إلى المدينة يحملون فرحة ذات ضجيج يعبرون عنها بنداء بعضهم على بعض أو بالضحكات وربما بحمل أمتعتهم الثقيلة بأنفسهم . . كل واحد منهم فى طريقه إلى إنسان يحبه أو نزهة أو متعة ناسيا كل ماعدا ذلك . .

وبقدر البساطة تكون الفرحة ولذلك فقد ضج الممر الأرضى المؤدى إلى خارج المحطة بما يشبه الجلبة التى تحيط بالمراجيح — حين عبرته إلى الخارج قافلة من الريفيين . . بينهم فتاة شابة صامتة فى الخامسة والعشرين ، ريفية تمشى مشية فتيات المدينة .تتعثر شيئا ما فى ملبسها الطويل الأذيال لكن تموج بدنها تحت الواسع يدل العين على أنها نالت قدرا من التمدين وربما لبست الملابس الضيقة يوما ما . وعلى رأسها « سلة » كبيرة وعلى شفتها ابتسامة صغيرة .

كانت تعرف العنوان التى تريد أن تذهب إليه ومن أجل ذلك لم تسأل أحدا عنه . وأخذ الترام يشق بها شارع كلوت بك ببواكيه التاريخية ومحلاته التقليدية وعينها تتابع طريقها فى صمت حتى وصلت إلى المكان المطلوب . فهذه « دار الكتب » المخططة بالأحمر والأبيض تقع الآن على يسارها . . عليها إذن أن تنزل آه . . وهبت عليها من ميدان « باب الخلق » رائحة قديمة . . عرفتها . كان محل السردين مغلقا لكن رائحته نفذت منه وإلى جانبه

تماما محل الحلوانى الذى يبيع الجوزية والمشبك والبسبوسة وحوله عديد من الناس يأكلون أو يشترون .

خفق قلبها وهى تلقى بنظرة على ذلك الشاب الذى يقف هناك فى مريلة بيضاء ناصعة مثل مريلة الطبيب « كما كانت تقول » وقد إنهمك وراء الزجاج فى قطع الحلويات . لم يلحظها ولو أنها وقفت أمامه عدة ثوان فواصلت سيرها حاملة السلة لكنها بعد أن مشت بضع خطوات شعرت برغبة فى أن تعود لتسمع صوته . حتى مجرد كلمة بين بائع ومشتر . .« هات وخذ » . . خصوصا فى هذا الزحام . لكنها على الرغم من أى شيء ستنظر من جديد فى عينيه الكاذبتين . عيناه اللتان تزيفان المشاعر وخدعتاها زمنا غير طويل .

ونادت باسمه فلم يرفع رأسه . كأنما عاد فتذكر هذا الصوت فنظر كأنه يستيقظ من حلم ويده مشغولة بالعمل . قهقه فجأة عندما رآها وطالت قهقهته . . أحست كأنه يسخر منها ثم مالبث كل شيء أن صار عاديا . . وأعطاها ما أرادت من الحلويات ونظر إليها كأنه يأسف على شيء . . ثم ما لبثت هذه الخطرة أن تولت كأنما بلعتها موجة . .

واستأنفت سيرها تحمل الحلويات ممن كانت تحب آخذة طريقها إلى من تحب . على رأسها هدية من الريف وفى كفها هدية من المدينة و لم تدر لماذا سالت من عينيها دمعة وهى تصعد مرتفع شارع « غيط العدة » لتأخذ طريقها إلى البيت المقصود .

وعندما دخلت الحارة أخذت تنظر إلى الحوانيت وأصحابها الذين عرفتهم وفارقتهم منذ أكثر من سنة . ومن النظرة الأولى لم يعرفها أحد . فأحست بخجل . . فلم تطاوع نفسها أن تحيى أحدا منهم . لأن خمسة عشر شهرا لا يمكن أن تطمس الوجوه والذكريات هكذا . وحين شمت رائحة البخور

المألوفة التى كانت تنبعث عادة من دكان اللبان عرفها أنها على مقربة من البيت فتذكرت أيام طفولتها فيه ليالى كانت تخاف من القطط السوداء والبيضاء التى تسرح فى ظلام الحوش . . ثم . . ذكرت أيام شبابها . . ليالى كانت تخاف من الملابس البيضاء أو السوداء التى كانت تزف أحيانا بجانبها وهى فى طريق عودتها من السوق . . ثم شغلها صعود السلم . كل شىء كما هو . وحتى الزجاج الذى يحلى شبابيك السلالم لم يكسر لم يمسح من عليه التراب . وكانت متوقعة أن ترى بين الأطفال الذين سلموا عليها وقبلوها ونادوها باسمها وهم يتواثبون على السلالم ـــ كانت متوقعة أن ترى بينهم « نبيل » ذلك الطفل الذى أحبته والذى جاءت اليوم لتراه وحملت له على رأسها هدية من الريف وفى كفها هدية من المدينة . لكن شيئا من ذلك لم يحدث . حتى إذا وصلت إلى الدور العلوى رأت باب الشقة مغلقا . والشقة منفردة على سطح العمارة وأمامها الفضاء وشمس أكتوبر تلون البلاط المعصرانى الحجرى الأبيض الذى فرش به السطح بلون أقرب إلى أرض الملاحات أحست عنده بوحشة كأنها لم تره قط .

ولكن سرعان ما وضعت « السبت » من فوق رأسها ودقت الجرس والتقطت أذنها بعد عدة دقات صوت نبيل ابن الخمس السنوات وأخته الصغرى بنت الأربع السنوات وهما يلهوان فى الداخل ويضحكان فلم تلبث الوحشة أن فارقت قلبها ـــ وعادت ريثما يفتح الباب ـــ فألقت نظرة على بلاط السطح ثم تذكرت لعبهم فيه .

ولم تلبث أن سمعت ـــ بدل وقع الأقدام ـــ صوت زمارة يقترب . يبدو أنها مركبة على فوهة بالون نفخه الطفل ثم سار به نحو الباب ويرسل صوته تلقائيا وهو سائر ليقول مع زمر البالون بصوت شجاع حلو لا يخلو من لثغة محبوبة : من ؟ . . من ؟ . . من ؟ . .

. تحمل الحلويات ممن كانت تحب ذاهبة إلى من تحب . .

وعندما سمعت صوته من وراء الباب مباشرة كان صوت البالون قد انقطع وصوت لعب الأطفال على السلم فى الأدوار السفلى قد سكت كأنما لتهيىء لهما الظروف أن يسمع أحدهما الآخر .

وعاد نبيل يسأل وقد ألصق جبينه بالباب من الداخل ومن ورائه أخته فى يدها شخليلة ذات صلصلة حنون . وسأل نبيل .

— من على الباب ؟

عندئذ عرفت الفتاة أنه لا أحد فى الداخل غير الطفلين وأنه منذ خروجها من هذا البيت وعودتها إلى الريف للزواج بعدما تبين لها أن حسن الحلوانى يريد أن يعبث بها — منذ ذلك التاريخ لم تدخل البيت غيرها ممن يقمن بالخدمة . وتركت الصبى يسأل وسرح فكرها إلى طفل آخر اسمه نبيل . . هو ابنها هى . . ذلك الذى تركته مع أبيه فى القرية وجاءت لترى ربة هذا البيت فى يوم عيد . . تلك التى كفلتها ورعتها وزوجتها فظلت تحمل لأطفالها حتى الآن ذكريات حب غريبة . حتى أنها فى يوم من الأيام قالت بسذاجة لزوجها هناك وهى تحملق فى وليدها : « لو رأيت نبيل ابن الأستاذ سعد لرأيت ملامحه فى وجه نبيل ابنى .. » .

فحملق فيها زوجها وضحك . . ففطنت إلى سذاجتها وقهقهت .

وها هو ذا صوت الصبى يأتى من وراء الباب سائلا :

من ؟ من ؟!

— أنا دادا زينب يا بلبل . . أين ماما يا بلبل ؟ !

فعلا صياح وهياج . حركة غير مضبوطة من طفل لم يتحمل الفرحة فأخذ يهز الباب ويدقه بقدمه وأخذت أخته تضرب الخشب بالشخليلة وتقول كلاما غير مفهوم لكن فيه رائحة الفرحة .

أما الصبى فإنه هدأ قليلا بعدما فطنت الفتاة إلى أنها أثارت عواطفه

وحاولت تهدئته بالخديعة قائلة له : « انتظر يا بلبل . .أنا سأفتح الباب بالمفتاح الذى معى . . انتظر . . اهدأ انت حتى أستطيع فتح الباب » .

وأخرجت من جيبها قرشا . . قطعة معدنية . . وأخذت تحكها فى ثقب المفتاح لتحدث صوتا يشبه محاولة فتح الباب وفى هذه الأثناء ، كان صوت الطفل يأتى إليها وقد غلف بشخللة اللعبة التى فى يد أخته قائلا لها :

« دادا زينب . . وحستينى (وحشتينى) ماما فى السغل (الشغل) وبابا فى السغل (الشغل) وبكره العيد يا دادا زينب . . . افتحى الباب علشان أبوسك » .

كانت فى هذه اللحظات تحك قفل الباب بالقطعة المعدنية التى أخرجتها من جيبها لتوهم الصبى أنها تعالج فتح الباب . والسبت إلى جوارها على الأرض يحوم حوله قط كبير . . مخطط الجلد كأنه نمر . عرفته من قديم فطالما طاردته عبر الشقة معتديا وعبر السطوح معتديا كذلك . . . وذكرها لون عينيه بلون عينى زوجها . . وبالتالى تذكرت ابنها الذى أقفلت عليه باب الدار وحده وهو طفل فى اللفائف بعد أن ملأت له بطنه باللبن . . . لم يكن أبوه إلى جواره أيضا . . كان يشتغل فى إنشاءات السكة الحديد على بعد ستة كيلومترات من القرية وهى تذهب بعد طلوع الشمس إلى حقول القطن . . تهز الندى عن الشجر فتذكر تقاطر اللبن فى فم وليدها . . وكثيرا ما هاجمها وسواس أن ابنها قد تعرض لخطر . .

وأخذت تحك القفل بالقرش وريقها جاف :

— افتحى يا دادا . .

— حاضر . .

— ماله مفتاحك ؟! أنا سامع صوت القط الكبير . اضربيه أحسن يعضنى . .

وأرادت أن تفتح له باب الاستطراد فى الحديث :

ـــ أنه لا يعض إلا القطط . لا يعض الأولاد أبدا . هل تعلم أننى خلفت ولدا اسمه نبيل . .

وبفرح شديد ودقات على الباب تشبه دقات طبلة غير مضبوطة وصوت شخليلة كوثر جاءت ضحكات الصبى وأسئلته :

ـــ فى المدرسة النهاردة يا دادا ؟

ـــ لا .

ـــ ايه ؟ علشان بكره العيد ؟

ـــ نعم . هو ولد شجاع لا يخاف من شىء . تركته وحده فى البيت وذهبت إلى الشغل أنا ووالده فظل يلعب ويغنى حتى رجعنا إليه . .

ـــ ورجعتم والعيد معكم ؟

ـــ ورجعنا والعيد معنا .

ـــ أختى كوثر تحب البون بون يا دادا . . و. .

وتركته يحكى ذكريات وخيالات وحقائق وعادت هى بذاكرتها إلى آخر ليلة ودعت فيها هذا البيت عائدة إلى الريف لتتزوج . ليلة قالت لها ربة البيت كلمة لا تزال تذكرها : « أنا لست خائفة من فراقك لأننى أعرف أنك هناك ستعيشين نفس الحياة . فأنت وزوجك لابد لكما أن تشتغلا مثل حالى أنا وزوجى تماما » .

ثم استطردت فى ابتسامة راضية : « ربما كنتما ذات يوم أحسن حالا . . لأن طبيعة العمل فى الحقول لن تستدعى الشغل يوم العيد . لكن زوجى الموظف فى السكة الحديد وأنا المشرفة على دار الكفيفات قد يحدث أن نغيب معا عن بيتنا فى يوم عيد . كل الذى يؤلمنى أن الأم الثانية لنبيل ستبعد عنه . . هذا كلام جميل . .ولكن أفرضى أنك سميت ابنك « نبيل » كما تحبين فهل معنى ذلك أن ابنى سيسلو عنك ؟ » .

ومن خلال ضحكتها الواهنة استطردت : « هل تشعرين أنه لن يكون هناك فرق بين ظروفى وظروفك . . أم نبيل فى المدينة مثل أم نبيل فى القرية . . ستشتغلين بيديك وقلبك ملىء بالحب وصدرك ملىء باللبن . . مثلى تماما ليس هناك فرق » . .وقبلتها وهى تقدم إليها الهدية الأخيرة . حلية وملابس من الحرير والقطن . . وزجاجة عطر . . لا تزال تحتفظ بها . .لا تتعطر منها إلا مرتين فى السنة . كل مرة يوم عيد .

وها هي ذى رائحتها تفوح من ثوبها الآن وهى تعاود حك قفل الباب بقطعة من النقود ونبيل فى الداخل يثرثر بحكايات عنه وعن كوثر ويشتم القط كلما سمع مواءه ويتحدث عن يوم ذهابه إلى المدرسة ويسأل عما إذا كان ابنها قد نجح مثل ابن جيرانهم الذى سقاه الشربات .

وفجأة ساد صمت وجلست « دادا » على الأرض منهكة القوى فقد مضى عليها فى وقفتها نحو ساعة .

وبكى الصبى فى الداخل : « أنت بتضحكى عليا يا . . » .

ثم ارتفع صوته وأحست فيه الفتاة رنة غريبة وجديدة !

« لا . . أنت مش دادا زينب أنت حرامية » .

وارتفع صراخه .. وكانت أخته تشخلل . . تركته وحده يبكى وفجأة شاركته فى البكاء . .

نظرت زينب إلى ما حملته فى يدها من دكان الحلوانى من أجلهم وما حملته على رأسها أيضا . وخيل إليها أنها تسمع صوتا ثالثا فى الداخل يشاركهم البكاء . . وأقعى القط وأخذ يموء فى حزن لأنه يتطلع إلى طعام لم ينل منه إلا رائحته وأحست الفتاة أن صدرها ملىء باللبن . . وكانت على عزم أن تعود آخر النهار لكى تبيت فى دارها . . وها هو ذا الباب يحول بينها وبين من حملت الهدايا إليهم وصوت بكائهم يأتى إليها متقطعا . .ثم ابتعد . .

(حافة الجريمة)

وفجأة وجدت نفسها تشمر أذيالها ثم تقف إلى الباب وكتفها إليه ثم تدفعه بقوة فلاحة . . فانفتح . .

ودخلت فاحتوت الطفل بين ذراعيها . . وردت الباب . . وعادت الذكريات القديمة . . وارتفعت ضحكات الطفلين فى المسكن .

* * *

وعندما عادت ربة البيت أدهشها أن ترى الباب مفتوحا . لكن زينب قالت لها وهى تبكى وتضحك . إنها لم تستطع إلا أن تكسر الباب فذلك أسهل مما تحملت .

« إننى راجعة إلى بلدى يا سيدتى بعد ساعة لأن زوجى لم يسمح بغير ذلك . . وصدرى ملىء باللبن ونبيل ينتظر أن أرجع إليه هناك والعيد معى . . كما قلت أنت لنبيل هنا » .

ولم تلبث قبلة وداع أن سمعت بين الاثنتين .

شعر بنوع من الراحة لم يكن رآه من قبل عندما فتح له هذا الرجل المسن البدين باب آخر حجرة على يمينه فى الممر الطويل الذى غطته عتمة الليل و لم تبدد ظلماته المصابيح المتباعدة . . انحنى الرجل وهو يفتح له الباب ويتراجع ليفسح له طريق الدخول وهو يقول :

— تفضل يا سيدى . . تفضل . .

عندئذ شعر بنوع من الراحة لم يكن رآه من قبل ، لقد أتعبه البحث فى المدينة عن حجرة فى فندق ينام فيه ناسيا أننا فى شهر يوليه وليس فى الإسكندرية مكان لنزيل لا تخدمه الظروف لذلك فإنه لم يستطع من فوره أن يلحظ مدى مساحة الحجرة أو نوع ما فيها من أثاث فكل ما كان يرجوه هو أن يضع جنبه على شىء ثابت . . سرير . . أو حشية . . أو أرض عارية وعندئذ سيستشعر لذة نادرة ربما توصف بعد أن تذاق .

وأقفل وراءه باب الحجرة واستلقى بملابسه كلها على السرير . و لم يكن يدرى بالضبط أين يضع حقيبة سفره . لكن هدوء الحجرة وما منحته من راحة ذكره بأيام الطفولة . . بما كان يلقاه فى أحضان أربع أمهات تتلقاه على التوالى وربما تنازعته فى حنان لا يوصف . أيام كان صبيا يلعب ثم يدخل متعبا إلى بيتهم الريفى الكبير فتحضنه فى حدب على التوالى خادمة مسنة وخادمة شابة وأم مسنة هى جدته لأبيه ثم أم شابة لم ترزق بولد سواه .

ولأول وهلة بعد سقوطه على الفراش فى هذا الفندق المتواضع أخذته سنة من النوم لذتها لا توصف . خيل إليه أنه لم يذق مثلها قط لا فى السرير النحاسى الضخم التائه فى الحجرة الواسعة فى البيت الريفى قديما ولا السرير الخشبى الحديث الذى تنام فيه زوجته الآن فى القاهرة .

وعلى صوت نشيش الماء الآتى من الحمام الملاصق لحجرة نومه فى الفندق استيقظ بعد ربع ساعة . . عندئذ جلس فى الفراش . ونظر فى ساعة معصمه فإذا بها تشير نحو الحادية عشرة مساء . ثم ألقى نظرة على نفسه « من الخارج » . ولم يكن يدرى لماذا قد استحال فى هذه الآونة إلى شخص « مكرر » كمن يرى خيال نفسه فى عدة مرايا ولذلك فإنه عندما ألقى نظرة على نفسه رأى قميصه المبلل بالعرق وشم رائحة قدميه العاريتين من الجورب وكانتا على الحشية الخفيفة أضخم حجما فى نظره عن المألوف لكثرة ما مشى هذه الليلة .

شعر أنه ليس فى أناقته القديمة فهل كان يسمح لنفسه مثلا أن يجلس متربعا بالبنطلون ؟ أو أن يسير حتى ينقطع جوربه من الخلف ؟ !

على أنه عندما مدد ساقية على الفراش وطقطقت مفاصله أحس بلذة جديدة فعاد فرقد كما كان وأخذ يتأمل هذه الحجرة التى عثر عليها بعد جهد . فى هذه اللحظات فقط بعد أن زالت حدة التعب والحاجة استطاع أن يقيس مساحتها « متران ونصف فى مترين ونصف » . فيها هذا السرير السفرى وقطعة صغيرة من الأثاث هى صوان للملابس وفى الحائط المقابل للباب نافذة صغيرة مقفلة حتى الآن لم ير ما وراءها والسقف منخفض جدا . فيه مصباح عار غير ساطع النور وليس فى المكان أى صوت سوى ما يأتى بين حين وآخر من خرير الماء فى الحمام القريب وعلى الحائط فوق زر النور صورة لراقصة « باليه » من مجموعة نسائية يبدو ببساطة أنها فصلت من إحدى المجلات وعلقت فى ذلك الإطار الزجاجى الرخيص التكاليف .

وفجأة وجد نفسه يوازن بين هذه الحجرة وبين تلك التى تربى فيها . . كم تمنى لو كانت ضيقة عليه أيام صباه ؟ ! كان الجزء الواسع المفروش بالحصير المنقوش والبساط الأخضر يبدو فى الليل مليئا بالأشباح وصور العرائس

الحاملات المزاهر لم يكن يراها فى النهار هناك ولم يكن يرى فيها جمالا ولا قبحا . . فلا يكاد يحس بأن على الحائط نقوشا وزينة . أما فى الليل فهى تبدو قافلة من الجنيات . وكم تمنى أن ينام فى حجرة ضيقة أو ينام معه فى هذا الاتساع ناس كثيرون .

وهو الآن فى حجرة طولها متران ونصف وعرضها كذلك . عثر عليها بعد جهد . ليس فيها بساط ولا سجادة لكن فيها غفوة لذيذة . . واسترخاء لا يوصف . لجأ إليها من مشاكل تركها مؤقتا . . طفت فجأة على صفحة حياته كما تطفو الجثة على صفحة النهر . . ولم يطق أن يتحملها ببساطة فلما رأى الخلاف قد بدأ يتوطد بينه وبين زوجته آثر أن يترك موطن الخلاف فركب إلى الإسكندرية هكذا كما اتفق ووصل هكذا كما اتفق وأعياه البحث عن حجرة فى فندق حتى استقر فى هذه الحجرة .

* * *

مد يده فأطفأ النور ثم قام إلى النافذة ووقف فيها ومن خلال الظلام النسبى فاحت من الحارة الخلفية الواقعة عليها الحجرة روائح غامضة خليط من الفواكه والسردين وجو الرطوبة . ولم يدر لماذا أحس بحاجة إلى استنشاق الهواء كأنما هو فى جو غريب يريد أن يتعرفه فملأ صدره منه . ثم أطل على الحارة .

كانت ضيقة هادئة تملأ ناحيتها المقابلة مدرسة مكونة من طبقتين مقفلة طوال الصيف وعند ناصية المدرسة عدة دكاكين رأى منها على مقربة منه — لأنه فى الدول الأول — دكان رفاء ودكان ساعاتى. جلس صاحباهما متقاربين كل على باب دكانه يزاول عمله تحت مصباح قريب من وجهه تدلى من سلك . . .

كل منهما يعمل فى صمت والمكان صامت فخيل إليه أنهما أعديا المكان بالسكون على أن جناح السكينة كان يرفرف على الحارة .

ولو لا الروائح الفضولية لكاد يتصور أنه يطل على معبد .

وكان كلا الرجلين يستعين على عمله بكل ما فى نظره من قوة . غير أن الرفاء استحوذ على مشاعره كلها فقد كان أصلع يقع جزء من النور على رأسه فيبرق وأمامه قدح من القهوة وفى يده جورب لسيدة يرفو فيه قطعا كبيرا وبين آونة وأخرى يدق جرس مكتوم يأتى صوته من « الفاترينة » الزجاجية الصغيرة التى وضعها الساعاتى أمامه . وهذا الجرس من « منبـــه » تحت الإصلاح . وكأنما كانت دقاته تنبه الرفاء من شبه نعاس أو استغراق ذى أعماق يتأ لم عندما يسحب منه فيلقى بنظرة عابرة قصيرة إلى الناحية التى فيها جاره ويعود إلى ما كان فيه .

قال فى نفسه وهو ينظر إلى العمل الصامت الذى لا تقطعه نأمة ولا حركة :« إنه يعيد نسج الجورب . . يا الله . . إن كل إعادة عملية لا تخلو من مشقة حتى صواب الخطأ الذى كنا نكلف به ونحن تلاميذ . . آه « وتنهد » أما هذا الرجل ... » .

وعندئذ رن جرس المنبه فى يد الساعاتى رنة قصيرة تدل على أن « العدة » لم تصلح بعد لكن الرجل عاد فسأل نفسه : « كم أريد أن أعرف طريقة سلوك هذا الرجل مع زوجته فى البيت ؟! هل يا ترى يأخذ أموره كلها بهذه الطريقة الصابرة التى تبنى من العدم وترم من الخراب .. لا يغضب . . ولا ييأس ولا يرى فى الدنيا طريقا مسدودا ؟!.. آه لعله كذلك» .

وعادت إليه ذكرى مشكلته تلك التى لا يكاد يعثر لها على حل . فهو وزوجته يشغلان وظيفتين فى وزارة الصحة وعندما تعرف كل منهما على صاحبه كانا فى مدينة أسيوط . . دب بينهما الحب . . .فى مستشفاهـــا المركزى . فتزوجا . .

حسن . . لكن بمرور الزمن كان لا بد من تعدد أفراد الأسرة وراود الزوجة شيطان جميل . . هو العودة إلى القاهرة حيث مسقط رأسهـــا

والذكريات والأسرة والأم الحنون التى تترك عندها الأطفال ريثما تعود من المستشفى . . حكيمة .

ودق جرس المنبه فى يد الساعاتى فجر أفكاره إلى الحارة . . نظر إليه ثم إلى الرفاء كان فى هذه اللحظة يجادل سيدة بصوت خافت ثم إرتفع الصوت حتى سمع الحوار :

ـــ لكن ما تطلبه من أجرة يمكن أن أشترى به جوربا جديدا .

ظل كما هو . . الإبرة تنسج والصوت خافت يسمع بالكاد .

ـــ ولماذا جئت به يا سيدتى ؟

ضحكت السيدة فى دلال . . وبعد صمت قصير جاء ردها :

ـــ لأن هذا الجورب ذكريات . .

ـــ إحتفظى به مقطوعا .

ـــ وهل يحتفظ أحد بحبيبه ميتا على سبيل الذكرى . . إننى أريد أن أحييه .

ـــ أنت تريدين الشيئين معا . من أجل هذا ستتعبين .

* * *

قال فى نفسه وهو فى النافذة : إن زوجتى تريد الشيئين معا . وهناك شيئان لا يجتمعان . بادلت زميلة لها فرحلت هى إلى القاهرة . . على أساس أن ينقل زوجها إليها لكن . . تبين لها أن مطلبها غير قانونى . . فقد كانت مع زوجها من قبل . وبذلك خسر الزوج مسعاه عاما بعد عام حتى أصبح يشعر بالوحدة والخسارة والفراغ . ولم يكن قادرا على أن يدفع إيجار شقتين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ثم كان عليه لكى يرى أولاده أن يسافر إلى العاصمة فرأى زوجته فى هذه المرة وهى تعانى آلام المخاض . وكان لا بد أن ينتظر حتى تلد ثم

دب بينهما الخلاف حين قال كلاما معقولا : ما دام أنه من المحال أن أنتقل أنا إليك فعلينا أن نسعى لتعودى حيث أنا . .

ـــ وهل هذا معقول ؟ ! إن رعاية أطفالى فى غيبتى موكلة إلى أمى . . آ . .

وأجهشت بالبكاء وهى ترضع الطفل فشعر ساعتئذ بضيق لا يقاوم . فأخذ يصيح ويصرخ معبرا عن آلامه ومتاعبه واحتياجاته . أما هى فقد عملت ما تعمله أضعف امرأة . . شرعت السلاح السلبى المهلك . . تركت دموعها تجرى من عينها إلى خدها إلى عنقها حتى كادت تصل إلى فم الرضيع .

فلما رأى هو ذلك خرج غضبان مسافرا إلى مكان لا تعرفه . . إلى حيث هو الآن . . يطل على الحارة الهادئة التى أفعمت أنفاسها بتلك الروائح الغامضة واسكرتها هدأ الليل.. ولولا هذان الرجلان اللذان يعملان ما بدا فيها إلا النوافذ المقفلة للمدرسة المواجهة .

لكن جرس المنبه رن رنة واحدة فى يد الساعاتى فجره إلى تحت إلى حيث الرفاء يعيد نسيج الجورب الذى مزقته الحركة وكانت السيدة قد جلست على كرسى جواره . . . بلا مسند وكانت تقول :

ـــ لكن أنا مصممة على أن أنال الشيئين معا . . سأرفى الجورب وأدفع ما أريده . .

ـــ ممكن أن ترفيه ولا تدفعى شيئا . .

وتهللت المرأة لهذا الحديث وقرقرت ضاحكة :

ـــ ياه . . أشكر لك ذوقك ..

رد بإهمال الآلة :

ـــ ليس هذا قصدى .. قص أن تتعلمى كيف ترفين جواربك بنفسك وعندئذ لا تدفعين شيئا .

وتهللت المرأة لهذا الحديث وقرقرت ضاحكة

— ظننتك تجاملنى . .

— المجاملات لا تحل المشكلات . .

— لكن آه . . إنها صنعة مملة . .

— بتاتا . . لو كان فيها ملل لضاق صدرى من مساوماتك . .

— ذلك طبيعى . .

— لكن تذكرى أنك تساومينى على نور العين . .

— هل غضبت ؟

— بتاتــا ! ؟ ! . . ما على فى مثل هذه الحالات إلا أن أتصور أننى « أرفى » كلام الزبائن بدلا من أن أرفى جواربهم . .

وعندئذ جلجل ضحك المرأة وضحك الساعاتى وجرس المنبه فى لحظات متتالية فابتسم الرجل الواقف فى النافذة وحملق طويلا فإذا بالمرأة تلقى إليه بجوربها وإرادتها معا . . مسلمة بكل ما طلب من أجر .

ثم استدارت منصرفة . وظل هو فى مكانه . . وضع جوربها أمامــه وإستمر يعمل بالإبرة ولا شىء يتحرك فيه إلا الأنامل . . .

* * *

دخل الرجل من النافذة واستلقى فى الفـراش . نظـر إلى مساحـة الحجـرة فألفاها واسعة مريحة كأنها فى سعة حجرته القديمة المفروشة بالحصير و البساط فى الريفِ . . عليه إذن أن يعـالج مشاكلـه بنـفس الطريقـة التـى عـالج بها الرفـاء موقفه . . وسأل نفسه بإلحاج :« لكن . . كيف يتصرف هذا الرجـل مـع زوجته ؟! » وجاءه جواب « إن كان باب النجار مكسورا . . فهذا لا يهم الزباين فى شىء » .

واستغرق فى نوم عميق ثم قام وقت الصباح فأخذ حماما بـاردا . . ثم . . استقل القطار إلى القاهرة . . وهناك ودع أسرتـه فى صمت دعـا زوجتـه إلى

التفكير الطويل .

*** *** ***

مضى شهر و لم تتلق منه رسائل . و كلمته فى التليفون فا عتذروا بأنه بعيد فى أحد أطراف المستشفى . مر نصف شهر . . ثم جاءتها منه رسالة تقول :

« إذا كنت ترغبين فى اجتماعنا مرة أخرى فقد دبرت الأمر لزوجين فى مستشفى واحد . وهناك فى أسوان حصلت على مكان لى ولك مكان شاغر بانتظارك . . فإن شرفت فأهلا . . وإلا شغلت المكان امرأة أخرى . . يا حبيبتى . . أرجو . . أن تفهمى قصدى تماما ولا تجزعى فإن المكان الذى أقصد أن تشغله امرأة أخرى هو فى المستشفى لا فى البيت ولا القلب » .

مملكة التراب

جو الليلة ليس مطيرا . وإن كان فى السماء سحاب منخفض يجرى فى إتجاه الجنوب . ومن الحقول تفوح رائحة نوار الفول ورائحة آجر محروق حديثا فى قمينة خمدت تحتها النـار . .

وحول الخيام المفروشة بالقش انعقدت غلالات متذبذبة من الدخان الصاعد من الكوانين . وليس مع الدخان روائح شهية . ليس معه إلا أغان متهافتة تدل على الانتظار . . مع صوت الجنادب المدفونة فى الطين أو اللابدة فى الحقول . وسعال متفرقة وقهقهة مجهودة ليست فى الحقيقة ضحكة بلغت ذروتها إنما هى استثـارة لـلضحك أكثر مـن أى شىء .

وعاد بعض الرجال بقوالب من الآجر من القمينة ونصبوها كوانين . وبعضهم عمل منها إطارا حول الخيمة من الخارج حتى لا يعبث الهواء بقماشها ويتسرب البرد .

وفى إحدى الخيام رجل يغنى . رائق الصوت ضعيف الجسم واسع الفم كبير الضحكة . سعيد من يأكل معه فهو يجعل النكت أداما للخبز . . أحلام اليقظة عنده تجرى على هيئة سيال لا ينقطع . . فى النهار أو فى الليل وهم يطهرون المصارف أويتناولون الطعام أو يشربون الشاى . اسمه إبراهيم الرقاص وقد لحقه هذا اللقب من جراء مهنة فرعية له . فهو يشتغل بتبييض النحاس فى بعض المواسم وعندما ينضب الرزق فى هـذا المجال يسافر مع عمـال التراحيل . . حرفته علمته الرقص ولذلك فهم يجبرونه على أن يرقص إذا ما طاب لهم أن يروا أردافا تتحرك .

صوته الليلة حزين . . ينبعث من خيمة فى الوسط فيها عشرون رجلا يغنى لهم فى انتظار الطعام . وقدر كبيرة على النار فيها عدس لا يريد أن

ينضج . . لا تستجيب للنداء كأنها إله وثنى قاس أصم عن النشيد أعمى عن البخور . وفجأة كف عن الغناء وكأنه تذكر شيئا . وبدت على ملامحه جدية طارئة حتى حملق فيه أقرب الجالسين إليه وسأله عما أصابه وعلل رجل سبب سهومه الطارىء بأنه ربما تذكر زوجته الراقدة الآن تحت السقف وثديها الذى نسيته خارج الجلباب ونامت قبل أن ينام ابنها« خليل » الرضيع .

لكن الرجل لم يرد . فانفتحت أفواه الرجال وكل يرمى عليه همومه . أو يثيره ليتكلم أو يحكى أو يغنى . لكن صمته طال حتى قذفه أحدهم بحفنة من قشور الفول فقال إبراهيم بعدها وكأنه يلقى اتهاما :

ـــ أنتم لا تعرفون لماذا سكت . . لأنى حزين .

وعلى الرغم من ارتفاع ضحكات لا تقدر العواطف استطرد :

ـــ إنكم لا تتقدمون . إنهم فى بلاد بره لا يفعلون هكذا .

وارتفع ضحكهم حتى صار ضجيجا فاضطر إبراهيم إلى رفع صوته وكأنه يخطب وقام واقفا واتكأ على العمود الأوسط فى الخيمة واستطرد :

ـــ ابن أم رقاقة هذا يسأل عما أقصده ببلاد بره لأنه لم يرها . . آه . . نعم أما أنا فقد رأيتها . إنهم فى بلاد بره لا يطبخون العدس بهذه الطريقة التى يطبخه بها هذا(العشماوى) بالسوس . . هناك يضعون عليه الكمون ويغرفونه فى الأطباق ويسلقون معه اللحم . . وربما دمسوه وصبوا عليه سمنا مقدوحا . هل عرفتم الآن أين بلاد بره ؟

رد موج من الأصوات يصخب سائلا :

ـــ لا يا بو خليل . .

فضحك وهو يجلس جنب العمود وكأنه فرح بأن خدعهم . . ورد بصوت لين خفيض نصف مؤنث يثير كوامن النفوس المغتربة :

ـــ بلاد برد هى التى تنام فيها زوجاتنا الآن مع دفء الأفران والماء الساخن

وصابون فيه رائحة العرايس . . بلاد بره هى التى فيها الفراش والسقف يا أغبياء .

✲ ✲ ✲

وعم صمت بعد أن جلس . لم يعد يغني ولا يرقص . أطرق حتى استقر ذقنه على صدره. وصمت الرجال مشاركين له والقدر تبعث ببخار أمسى فى أعينهم قليل الأهمية . وزحف على المكان صمت الحقول وافدا من الخارج لأن معظم من فى الخيام الأخرى قد ناموا . لكن صوت محرك سيارة بدأ يقترب فأقلق السكون . « هذا معقول ؟ » ونظر بعضهم إلى بعض . إنها ولا شك إحدى سيارات « جب » فليس من الممكن أن تمر سيارة أنيقة فى مثل هذه الأماكن . وخرجوا يحملقون فإذا نور كشافات على الطريق الرئيسى منح من الأنس قدر ما منح من الدهشة . استيقظ من فى الخيام كلهم حتى أيقنوا أن القادم فى الطريق إنما يقصدهم .

وكانت السيارة تتوقف بين حين وحين مما يدل على أن من فيها يقفون قليلا عند كل مجموعة من الخيام التى ينام فيها عمال آخرون . ثم بدأت السيارة تستأنف سيرها يسبقها خطان من النور يفرشان الطريق الوعر . حتى وصلت إليهم فكان إبراهيم أول من جرى ليستقبلها :

— ماذا جرى لكم ؟ هل قامت الحرب الثالثة ؟ .

ورد عليه صوت مألوف فيه خشونة الصنفرة :

— اسكت يا رقاص . . سحبوك من لسانك دون عباد الله . . أكلك وابور . .

ضحك بإهمال ومسح عينيه بكم جلبابه واستطرد :

— إذن لماذا جئتم ؟ لعل العمدة خلف ولدا يرث العرش من بعده فحملتم لنا

البشرى . هل نزغرد ؟ !

ونزل صاحب الصوت الخشن وهو الموكل بكل الأنفار من قبل المقاول نائبا عنه وكان معه رجلان غريبان لم يعرفهما أحد مما جعل الصمت أكثر حذرا وأكثر طولا . ووقف الرجال الثلاثة يلقون نظرة كأنها جديدة على الخيام التى غبرها الدخان وتخرقت فى بعض أماكن وعلى تلال الطين والتراب على المصارف ثم دلفوا إلى إحدى الخيام وتبعهم العمال . حيث جلسوا قليلا . وقام أحد المتحمسين يصنع إبريقا من الشاى رفضه أبو عزوز ذو الصوت الخشن بإشارة قلقة ثم قال لهم :

ـــ اسمعوا إن المقاول . . آه . انتقل . .

قاطعه إبراهيم الرقاص فى شجاعة مترددة :

ـــ فلينتقل إلى أى مكان يعجبه . . والله لن ننتقل من هنا إلا بإرادتنا نحن . . كفاية . .

ـــ يا مغفل . . اصبر . . « ثم تكلف الحزن » لقد انتقل إلى رحمة الله وهو يصلى المغرب وأصبحنا جميعا مثل أولاد بلا والد . . و . .

وحشرج صوته من البكاء المحبوس . ونظر الرجال بعضهم إلى بعض يريدون أن يروا الفارق الدقيق بين الحزن ودمعة الفرح حين ترتدى السواد . لكنهم أحسوا ـــ ولا بد أن من فى الخيام الأخرى قد أحسوا ـــ بأن فرصة مجهولة ترفرف على هذه الخيام .

لكن أبو عزوز سيملك فرصة حقيقية . فهو الرجل الوحيد الذى يمكن أن يتقدم للمقاول الإغريقى لضمان ماله . وعندما يعلم هذا المقاول بوفاة رجله الأول فلا شك أنه سينهار فإن ألوفا من الجنيهات التى نثرت على هذه الترع ربما تضيع وعدد من الرجال سيسعى منذ الصباح التالى إلى الخواجة « بترو » فى الإسكندرية يعرضون عليه السير بالعمل إلى بر السلامة بعد أن مات المقاول

حتى لا تضيع الأموال التى نثرت على الترعة .

وبدأ العمل فى اليوم التالى مترنحا قلقا وهرب كثير من الأنفار إلى قراهم خصوصا بعدما بدأت أحوال الجو تسوء . وكان الخواجة « بترو » ينام كل ليلة مكتئبا بعدما يستمع إلى آخر نشرة جوية من الراديو مثل صياد ربط قاربه على الشاطىء . لكنه فى اليوم الثالث جاء إليه رجل مهيب . كان الخواجة بترو يعرف اسمه ولا يعرف شخصه . وجلس يتحدث معه فى شئون العمل وذكره بماضيه . . بماضى الخواجة بترو نفسه . أيام كان يعمل مساعدا لناظر زراعة فى إحدى العزب . وكان أيامها وهو شاب مولعا بأكل الأوز مما جعل نساء الفلاحين هناك يتبارين فى إهدائه إليه . وضحك بترو بوجهه الدموى . لكنه أحسن أن محدثه مفتقر إلى اللباقة . فإن أهل العز قد يجرحهم أن تذكرهم بماضيهم . ثم انتقل الضيف إلى الحديث عن العمال . هؤلاء الآلاف المنتشرون على المصارف والترع . . لو رأيتهم من طيارة قريبة من الأرض وهم يتسربون فى التراب لأيقنت أنك فى قرية النمل . وحدثه عن طباعه . . إن الخواجة بترو يعرفها ولكنه اليوم يود أن يعرفها ويحب ألا يسمع عنهم شيئا فى وقت واحد . وأخذ الضيف يؤكد له أنه من الخير أن يكل أعماله بعد المرحوم إلى مثله هو لأنه من أبناء المهنة . ولأنه خبير بأسرار هذه النفوس التى إذا أطعمتها طمعت وإذا أطمعتها طمعت . وخير ضمان لك أن تكون دائما موضع رجائهم على بعد . ينظرون إليهم مثل السحاب . وباسمك يتصرف رجل منهم خصوصا فى هذه الفترة التى اضطرب فيها العمل بعد موت المقاول . وإنهم حين يرونك يا خواجة (بترو) سيتذكرون أشياء مثيرة . بعضها يضايقهم وبعضا يغريهم لكن عصا الخيزران فى يد رجل مثلى تخيف الفأس فى يد رجال من أمثالهم . وربما كان المسدس فى يدك لا يخيف أكفهم الفارغة . .

واعترى الخواجة (بترو) بعد سماع هذا غم شديد . وجعل يفكر . إن الذين دخلوا عليه من قبل لم يقولوا شيئا مثل هذا . لم يثيروا فيه الخوف . ظهروا على هيئة من يعرضون التبعية :«نحن فى خدمتك » « سنكون مثل هذا الخاتم فى إصبعك » . . « الأمر » . . ولا شيء بعد هذا . فلم يحس صاحب الأموال أنه أمام شخصيات ممكن أن يعرف فيها مكان الخير ومكان الشر . أما هذا الذى أطنب معه فى الحديث فقد أخافه حقا . لكنه مع ذلك كاد يشعر بأن له شخصية مميزة . شخصية اللص الحاذق . أو شخصية الناصح الذى يقدم النصيحة بكل ما تحمل من مرارة . فكاد يميل إليه . لكنه رغب فى أن يمنح نفسه فرصة فقال له : إنى أرغب فى أن أراك مرة أخرى بعد يومين لا أكثر .

ثم رقد الخواجة بترو يحلم بالمصاعب فمن ذا الذى يضمن له بضعة ألوف من الجنيهات . غير المستقبل . ولم يكن قد اتخذ قرارا ما .

وفى صبيحة اليوم التالى قدم إليه أبو عزوز . دخل عليه متواضعا طيبا . ولم يكن فى حاجة إلى أن يعرفه بنفسه فلقد رآه مع المرحوم عدة مرات لكنه لم يكلمه . كان يراه ماشيا مع المرحوم كظله وقت الظهيرة . تحت قدميه باستمرار . يأمره فيطيع وينهاه فينتهى وأخذ يرحب به . قدم إليه القهوة فادعى أنه لا يشربها . وقدم إليه سيجارة فادعى أنه لا يدخن ثم أخذ يحدثه فى الموضوع :

ــ يجب أن ترى عملك بنفسك يا خواجه بترو . لا تفكر الآن فيمن سيحل محل المرحوم ولا فى النقود التى ضاعت ولا فيما سيحدث . لا شيء أعظم من أن ترى عملك بنفسك وسأكون بجوارك . إن هؤلاء الذين يمسكون الفئوس لا يخيفون أحدا . إن الصوت العالى يجعلهم ينكمشون فحاول أن تكون مرتفع الصوت وبعد ذلك فدع الأمر لى .

ــ لكن . . يا أبو عزوز . . إن معهم فئوسا . .

فضحك الرجل فى هدوء وبدت على وجهه شفقة الريفى حين تنطق فتوحى بالحنان فاطمأن بترو إلى سماعه :

— سيرفعونها لتحيتك فلا تخف . سأكون معك . وإذا فكرت فى التأخر عن المرور فالله يعلم مصير ما يحدث . سيهربون مائة بعد مائة . . ويضيع مالك وتدفع غرامة للحكومة .

هز الخواجة رأسه مقتنعا : إنه ليس غريبا عن الفلاحين . إنه يعرف طباعهم ولذلك فقد صمم على أن يمر وأن يخالف ما أشار به أبو عزوز فلن يصرخ فى وجوههم كما قال ناصحه بل سيسلك سبيلا أخرى سيحاول أن يعدهم وأن يغدق عليهم يوم مروره وسيكون لقدومه دائما تذكار طيب حتى إذا رأوه رفعوا الفئوس تحية لمقدمه وحبا فيه ..

***

وفى ضحا اليوم الثالث كان الاثنان يمران بين الأنفار لتفقد العمل وعندما أهل الخواجة بترو على أول مجموعة وكان فيها نحو ثلثمائة رجل هللوا لمقدمه .

— هيه . . الخواجة بترو . . هيـ يـ يه ..

ورأى الخواجة الفئوس ترفع فى الهواء وكذلك الكريكات . . وترك الرجال عملهم وأسرعوا إليه . أسلحتهم فى أيديهم كأنهم يسارعون إلى معركة وشيئا فشيئا بدأ الخواجة يتبين موقفه . فلم يكن على الوجوه المكدودة علامات ترحيب بل كانت علامات غامضة . أراد أن يتكلم فلم يستطع . غابت عنه كل أنواع الكلمات . إلا كلمة واحدة هى : « أبو عزوز » كان يهتف بها ويكررها كابتهال دامع . ولمعت فى الشمس الفئوس والوجوه والعرق فشعر الرجل أن ما أخذه منهم « بالتقسيط » سيدفعه فورا . . والدفع فورا شىء مخيف خصوصا إذا كان « عمرا » . .

وارتفعت فى الفضاء فجأة عصا من الخيزران كانت ذات قوة كعصا موسى .

لمعت تحت الشمس كما لمع العرق والحديد . وجعل أبو عزوز يهوى بها على رءوس المتجمعين وأجسامهم بلا تمييز تقع كما تقع والجمع ينحسر أمامها مثل جزر سريع حتى وجد الخواجة نفسه فى فضاء أمين مع الرجل الذى دافع عنه . ثم انهال عليهم بعد ذلك أبو عزوز لوما وتأنيبا وعاد سريعا بالرجل الذى لا يكاد يتماسك .

❊ ❊ ❊

كان (بترو) يرتعد تحت الأغطية فقد أصيب بحمى أحس حرارتها فى كفه أبو عزوز وهو يودعه عائدا إلى العمل وعلى شفتيه ابتسامة ترفض الشكر الذى يردده الخواجة المحموم .

وفى منطقة الخيام كان الذين أصابتهم عصا أبو عزوز يتقدمون إليه واحدا بعد واحد ليأخذوا من مال الخواجة تعويضا عما أصابهم . الكدمة بجنيه والخدش باثنين والبطحة بخمسة .

وكان هذا الاتفاق السابق لمرور الخواجة مع « أبو عزوز » وقبله بعض الناس . أما الذين لم تصبهم العصا فقد حصلوا على نفحه كما اتفق . وأصبح أبو عزوز الخليفة للمقاول الراحل بعد أن نجى حياة « بترو »

وتقدم إبراهيم الرقاص آخر الناس جميعا . كان قد عصب جبينه بمنديل مخطط وعلى فمه الواسع ابتسامة غير مبالية لا تعبر عن الألم . كان فيها سخرية من يترفع وهو محتاج . ووقف أمام أبو عزوز :

— مبروك المملكة يا سيدى . هل ترى جبهتى ؟

تحت الرباط ارتفاع مثل الدمل . نظر إليه أبو عزوز وقال له بعد أن ملأه الشك قال بصوت زاخر :

— ارفع الرباط يا رقاص . .

وحل إبراهيم الرباط من على جبينه . . كان تحته بعض أوراق خضراء من الحقول لاصقة بالجلد . .

ـــ ارفع هذه الأوراق أيضا لنرى الجرح الذى تحتها . .

ابتسم إبراهيم وقال بهدوء غير مبال :

ـــ لا داعى لأنك لن ترى الجرح ولو رفعت الأوراق .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنه ليس فى جلدنا . بل فى قلبنا . .

وتحسس شعر ذقنه النامى واستطرد فى ابتسامة :

ـــ ضحك على الذقون .

ثم رفع الأوراق الخضراء عن جبين لا جرح فيه فسحب أبو عزوز عصاه الخيزرانية لكن إبراهيم أشار إليه بيد ليس فيها اضطراب وقال بصوت غاية فى الهدوء :

ـــ لا . . حاسب . . حاسب . .

ـــ ماذا تقصد يا ولد ؟

ـــ أقصد أن تحاسبنى على الأيام التى عملتها . . والسلام عليكم يا عم . .

* * *

وبعد بضعة أيام كان هدوء الحارات فى القرية يردد صدى صوت جميل تعرفه النساء فى الدور يقول صاحبه الذى يمشى مختالا وقد شد حزاما على وسطه ـــ يقول بهدوء من عاد من غربة طويلة : « أبيض النحاس وا . . بياضى النحاااس » .

هو في هذه الليلة يجلس فى الفناء الوسع على مقربة من الباب الخشبى المصمت فى نوبة الحراسة . . تلك التى تسمى فى اصطلاحات الدواوين « بالنوبتشية » . . يشعر بحرارة الصيف ويضع قطعة من الثلج فى كوز يأخذ منه عدة جرعات كلما أحس بالظمأ .

وهو فى هذه الليلة يشعر أنه ظمآن باستمرار . لا يكاد الماء يشفى غليله . . يلقى نظرة عبر الساحة وهو يدخن ثم ينظر إلى النجوم ويعود فينظر إلى الساحة تلك التى يراها مزدحمة بالناس معظم أيام الأسبوع . . كان فيها حديقة موازية للسور ظلت تتضاءل عاما بعد عام حتى اندثرت وفى البقعة التى كانت تقف فيها إحدى شجيرات الزينة نصب صاحب « البوفيه » كشكه الخشبى . أما الحديقة فقد دثرتها أقدام المتخاصمين فى هذه المحكمة و لم يبق مكان النجيل الأخضر إلا التراب الناعم وعليه أن يرشه حتى يخمد فلا يثور غبارا .

وفاحت من الكشك رائحة تفل الشاى المرمى على الأرض وخيل إليه أن الصمت خيم على المكان فجأة وأنه كان منذ دقائق مليئا بالناس . ذلك لأن صورة ازدحام المتقاضين كانت لا تزال حاضرة كأنه يراها . وصورة القضاة وهم ينصرفون تسبقهم أو تتبعهم حقائب مليئة بمشاكل . كثيرا ما رأى هذا الحارس أصحابها وهم فى الفناء يتحدثون فيما بينهم عنها بحماسة تؤكد أن الحق شىء نسبى مادام خارج تلك القاعة . .

وعند ذلك تنهد هامسا « من فينا على حق ؟ » عاوده الظمأ فجرع شيئا من الماء المثلج وعاد ينظر إلى النجوم . و لم يدر لماذا عاودته فى هذه الوهلة ذكرى حادثة تؤلمه . وقعت له وهو ابن خمسة وعشرين عاما . مضى عليها عام واحد ولكنها تعاوده فى فترات لابد مناسبة لأن لكل شىء سببا . وها هى ذى

الليلة تلح عليه .

. . صورة امرأة فى ربيع الربيع من العمر على جسمها جلباب مفرد . وحيد . . تصرخ فى وجهه وهى منحنية إلى الأمام وتقول له كلاما لا يكاد يصدقه . .

ووقعت عينيه بعد لحظات من هذه الأفكار على مدخل المبنى . . على مدخل المحكمة . . فهناك بهو صغير بسلالم مزدحمةعلى اليمين وعلى الشمال بعقود وسقف زينها نبات متسلق فيه أزهار بنفسجية ــ كان كذلك ذات يوم ــ ثم فعلت به أيدى المتخاصمين ما فعلته أقدامهم فى نجيل الحديقة . تحول بمرور الأيام إلى حطب ثم أنزل من فوق سقف البهو وها هو ذا قد أصبح عاريا يحتفظ بصدى كلمات لهم لو أنها أشخاص ما استطاعت أن تعيش متجاورة ولمدة يوم . .

وعاد يقلب قطعة الثلج فى الماء . ثم ألقى نظرة طويلة على البهو وتأمله وهو عار من ثيابه الخضراء وعلى أعمدته بوضوح فى النهار بصمات أصابع لناس كانوا يختمون أوراقا . ولم يلبث أن سمع وراء بابه فى الداخل شيئا يسقط ثم يحطم ، وكان للسقوط صدى واضح جعله يحس بمسئولية من يحرس شيئا . وعليه على الأقل أن يتبين الموقف حرصا على ذاته هو إذا كان أهلا للمسئولية التى يسهر من أجلها .

من الغرفة الواقعة بجوار الباب الخشبى المقفل المصمت والتى سينام فيها طول ليلته ــ مشى قاطعا الساحة المتربة التى كانت تغطى بالنجيل يوما ما فى بعض نواحيها حتى إذا ما وصل إلى البهو ذى السلمين اختار الشعبة اليمنَى ثم فتح بابه ودخل . وأشعل النور فى الصالة التى تليــهوتأمل المكان فلم يجد سوى الصمت ذلك الذى أحس وكأنه شىء يكاد أن ينطق . ووقف فى المكان برهة لأنه لم يستطع تعيين مكان الصوت . وأخذ قلبه يدق . ثم ما لبث أن أطفأ

النور وولى ظهره خارجا . غير أنه أحس بالخوف . أحس بأن ظلام الصالة قد ولد فى الحال شيئا لم تره عيناه . فعاد وأشعل المصابيح ووقف ثم عنت له فكرة جديدة هو أن يفتش على بعد آخر . . . وكان أقرب مكان إليه هو باب إحدى القاعات . دفعه فانفتح وتحسس زر النور بيد مضطربة فتبدد الظلام فى الداخل .

***

بدت له القاعة أوسع مما كان يراها فى النهار . يتنفس فيها الصمت بثقل وتفوح فى أرجائها رائحة جير وهناك فى ركن قصى منها وجد كتلة من أديم سقفها قد سقطت . كتلة كانت معرضة لذلك منذ أمطار الشتاء المنصرم فوق سقف القاعة المكشوف . لكن ذلك لم يكن كبير الخطر للعين . وهى الآن قد سقطت على كل حال والمكان خال من الناس . .

وبدت له مهابة المكان مضاعفة بل أكثر . . . كأن الأماكن أقدر على احتفاظها بالزى والشخصية ربما أكثر من الإنسان . كذلك بدت قاعة الجلسات . فنسى الرجل تلك الكتلة التى سقطت على أحد المقاعد ووقف يتأمل شخصية القاعة بالليل .

كان هناك مصباح اندلسى يزين السقف من وسطه . وحوله فى أماكن متفرقة عدة مصابيح من طراز عادى . لكن المصباح الكبير كان مضاء . . وفى بعض الأركان ركدت ظلمة . أما المنصة التى يجلس عليها القضاة فقد بدت رغم خلوها وكأنها قادرة على إصدار حكم . .

« علَى من يصدر هذا الحكم » ؟ . .

ولعق شفتيه لأنه أحس بالظمأ . وعاودته ذكرى حادثة وقعت منذ عام . امرأة فى ربيع الربيع من العمر عليها جلباب مفرد تتكلم معه بغضب وحماسة

وصدرها يهتز تحت الجلباب . وخيل إليه أنها واقفة أمام المنصة تقول الآن ما قالته له منذ سنة ثم تختفى كأنما ابتلعتها الأرض .

لم يدر لماذا استمرأ الخوف . أحس أنه من نوع مخاوف المغامرات . . مجهول ترجح فيه اللذة والسلامة . ولم يدر لماذا رفع كفيه وصفق . . وهاله فجأة أن التصفيقة بدت ضخمة ضخمة . كأن المرئيات فى هذه اللحظة تحت « عدسات » والأصوات خارجة من « مكبرات » . .

ثم ود لو أنه صحب كوز الماء المثلج معه . لو أنه وضعه هنا ليشرب حتى يفرغ مما عن له أن يفعله . لكنه تناسى ذلك . وعاد وصفق . روعه الصوت لكنه على الرغم من ذلك جرب شيئا آخر . صاح وهو واقف وسط القاعة قائلا كما يفعل « الحجاب » : « محكمة » .

رن الصوت بطابع غريب . بدا فى سمعه وكأنه لا يمت بصلة إلى صوته الأصلى . شد ما انفصل هذا عن ذاك واغترب الفرع عن الأصل . . كان كأنه صوت رجل آخر ارتاع منه هو شخصيا . ولم تستطع القاعة أن تتشرب الصوت ببساطة فقد علق فى أرجائها كأنها شرقت به . . كأنها لم تسمعه من قبل آلاف المرات . وما لبث الأثر أن تغلغل فى نفسه . . فقد بدأ يشعر بالخنوع يشعر بموقف من سيق إلى هنا لا من دخل بمحض اختياره . . وعادت من جديد تلك المرأة الشابة بجلبابها المفرد . منحنية إلى الأمام وثوبها مبلول يكاد يلتصق ببطنها وفخذيها . تتكلم وصدرها يهتز . لكنها فى هذه المرة لم تكن متجهة له . كان ظهرها له . لأن وجهها كان لمنصة القضاة . وكانت تحكى لهم الحكاية .

واقترب هو من المنصة ليرى آثار وقع كلماته على وجوههم . . لم تكن منمقة ولا فصيحة مثل كلمات المحامين : بل كانت فى صدق كلمات الأطفال حين يعبرون عن مشاعرهم . . وكثير من كلماتها لم تكمل حروفه

لكن الغريب أنها كانت شديدة الأثر على السمع والقلب . وربما .. كلمة . . وضعت مكان النصف الثانى من حروفها دمعة أو ضحكة مخطوفة . . وكل هذا كان يؤدى أكثر مما تؤديه الحروف . .

وخيل إلى الرجل وهو واقف فى مكانه أن المنصة عليها قضاة . وعندما تجسد له ذلك الخاطر لم يلتفت وراءه لأنه كان من المؤكد أن سيرى مقاعد الجمهور وقد غصت بالحاضرين وشعر أن ما حدث منذ عام مضى قد حضر بكل تفاصيله وأنه بإحساس الذنب والأسى والخوف والرغبة فى التطهر يتلقى الجزاء — شعر كأن كل هذا جرعة ماء شربها قبل أن يدخل القاعة .

وحملق إليه قاض بدين أبيض الوجه أصلع تحت عينيه القويتين نفاختان تزيدهما مهابة وجعل يسأله . .

لم يرد على سؤال من أسئلته الكثيرة . تركه يسأل كيف يشاء . لكنه فى واقع أمره كان يملك إجابة لكل سؤال ، نعم . . وبعدما فرغ القاضى من أسئلته أطرق هو إلى الأرض . . سكت مليا وكأنه يسمع من خلفه أنفاس الناس . بعضهم يشهق وبعضهم يتنهد وبعضهم يكتم أنفاس نفسه . لكنه ما لبث أن قال :

« لقد نسيت كل الأسئلة التى وجهتها إلى يا سيدى . . لكنى لم أنس الحكاية . . لا أرى وجوه الناس ولذلك فأنا أنظر إلى السقف . . إنى أوجه الكلام إلى أعلى . . إلى أحسن جهة يرسل إليها شىء . . أما هى فليست قضيتها أعلى منها . . وكل الذين يجلسون ورائى يربطهم بقضيتها فضول أكثر مما هو تضامن إنسانى . . إنى أحبها ولذلك تزوجت . . إننى لا أرى وجهك يا سيدى القاضى فقد تكون ساخرا من كلمتى لكنى عرفت أن كل الذين يحبون زوجاتهم تزوجوا بعدهن . . إن الشىء الضرورى الثمين إذا غاب لا يجعلنا نعرض عن كل شىء ولكن يجعلنا نبحث عن بديله بين أخس

الأشياء . . قد يكون كلامى أروع من كلام المحامين لكنها ومضة . . من أثر ما أحس به طول السنة . . إن منصبك يعطيك القوة على ضبط الميزان وأنت ممسك به على المنصة . . أما بعيدا عن هذا . . فأنت مثلى . . الانفعال يرعش أعصابك فيضطرب كل شيء . لكنى طوال السنة أحس أن هذه المنصة التى تجلسون عليها موجودة فى داخلى . . . وعندما آتى وأراها هنا يخيل إلى أنها خرجت خطأ . لكنك يا سيدى القاضى لا تملك أن تحكم على بما سأحكم به على نفسى . . إن حكايتها لك — أقصد ما حكته السيدة — لابد أنها على صدقها أثرت عليك . لأننى أنا شخصيا وأنا شريكها وأول شخص شهد ما حكته — أنا شخصيا تأثرت بما هو فوق طاقتى وإن كنت خصما لها . . لذلك فأنا أتكلم ورأسى إلى فوق ووجهى إلى أعلى لأن هذه الجهة أعظم الجهات الأربع . . أعظم من اليمين والشمال والتحت .

عندما دخلت عليها مساء ذلك اليوم كانت نفسى متعبة . كنت أحس فى داخلى بحزازات من صديقى . . جارى . . وزميل صباى الذى لعبت معه فى القرية كل أنواع اللعب . . طاردنا الضفادع والضبابير ولعبنا الكرة واستحممنا فى النهر . . وسرقنا معا . . تلك السرقات المباحة عند الله وعند القانون . . أطفال يأخذون من الحقول قدر ما تأخذه العصافير من الأجران . . ثم رحلنا إلى المدينة . . وتزوجت ابنة عمه . . لم يتزوج هو . صديقى هذا وجارى . . ثم . . . كان لزاما على أن أقوم له ببعض خدمات نظير ما يقرضنى من مال . . فكانت زوجتى تغسل له ملابسه مع ملابسى . . و . . . وتكويها . . ثم ، بدأت أرى فى العيون ما أفزعنى . . لكننى لم أصل بالرغم من محاولاتى إلى أول الخيط بتاتا . فى الخارج لا أرى شيئا . وفى داخلى أرى أشياء كثيرة . . لكن . . هل تسمح لى بجرعة من الماء . . لا داعى فإن عطشى لن يطول . عدت مرة ذات ظهر فرأيتها فى

المسكن . جالسة على الغسيل . عليها جلباب وحيد مفرد.. مبلول . فى ربيع الربيع من العمر . وقد انكبت على ملابسى تغسلها .

وقفت خلفها أكلمها . كانت بادية السهوم . لعلها كانت متعبة . لست أدرى.. أنا مسئول عما فى داخلى.. لكننى حملقت وحملقت . ظهرها لى وهى جالسة وأنا واقف . كان بين يديها قطعة ملابس داخلية تغسلها بعناية . تنشرها بين يديها لتتأكد من نظافتها ثم تعيدها إلى الماء . حيث كفها لا تكاد تطيق حرارته وقد احمرت حتى أوشكت تتورم .

أحسست بشىء غريب . شىء هو امتداد لما مضى . ولما سألتها عن !! .. قالت إنها ملابسه .. أحسست بأخلاط من الضيق والضجر والغيرة . فقلت لها ما جعلها ترمى بقطعة الملابس بعيدا عن الطشت ثم قامت واقفة تكلمنى محتدة . وجهها لى وهى محنية إلى الأمام . تدافع عن نفسها وهى فى وضع غريب . جلباب مفرد .. لاصق ببدنها فى الأماكن . ووجه ملتهب من الغضب والحرارة . ودموع فى العين .. ورعشة على الشفة .

وقد توحى حرارة الدفاع بالشك . فتبادلنا التهم . أنت السبب .. هو ابن عمك .. لو شئته من أول الأمر لتزوجته .. بعض الناس لا يريدون إلا آخر الأمر .. لا داعى لهذا الكلام فنتيجته مرة .. اذهبى فالبسى شيئا تحت هذا الجلباب إن كنت تخافين على جسمك .

وعندئذ يا سيدى بلغ الأمر نهايته فصرخت فى وجهى وشقت ثوبها : وكان المنظر مؤسيا . فلم أدر ماذا صنعت . غير أنى فى نهاية الأمر وجدت جرحا صغيرا من أظافرها فى خدى الأيسر .

ثم دخلت الحمام لتستحم وتلبس ثيابها .. فلم .. تخرج .. قتلت نفسها .. أنا الذى قتلتها .. أنا .. الذى .

⁂ ⁂ ⁂

وأجهش بالبكاء . وأنزل نظرته إلى مستوى المنصة . ومن خلال الدموع رآها خالية . شعر أن الأمر لا يزيد عن كلام « نوبتشي » فى قاعة محكمة . وليس على المقاعد جمهور . ولا فى الغرفة اتهام ولا دفاع .. وعاوده الظمأ . وتلفت فإذا بالمصباح الأندلسى ثابت كأنه أثقال . لكنه ما لبث أن أحس بالحسرة . أحس أنها أوحشته . كم يتمنى أن يراها .. لم تلهه عنها زوجته الثانية ... أحس بالخوف وعاوده الشعور الأول فما لبث أن سار و لم يخرج من الباب ولكنه مشى حتى صعد المنصة . وهنالك جلس فى الوسط تماما مكان القاضى وحملق فى السقف . لم ينظر إلى أى اتجاه آخر ثم دق عدة دقات بقبضة كفه كما يدق القاضى بالمطرقة الخشبية . ثم ما لبث أن هتف بأعلى صوته :« براءة .. براءة .. » .

رن الصوت فى المكان الخالى فنزل يجرى وهو يحس بعطش شديد إلى الماء الملىء بالثلج فى خارج القاعة .

تجربة شخصية

« الليلة برد قارس وليس من المحتمل أن يزورنى أحد . على كل حال هذه فرصة للتفكير . أو للقراءة أو لإعداد مقال الأسبوع القادم .. » .

وعند هذا الحد سكت . ثم أخذت أفكاره تتواثب من جديد من مكان إلى مكان . وهو متدثر بأغطية من الصوف جالسا على كرسى مريح . وها هو ذا قد أصبح فى الشقة وحيدا بعد أن انصرف من المنزل ذلك الشاب الذى يقوم على خدمته لأن والده مريض .

وعندئذ قال فى نفسه :« والده أولى منى برعايته وإن كنت حقيقة قد أحتاج إلى شىء لكن ذلك لا يهم » ونظر حوله . فى الحجرة المقابلة مكتبة له . وفى الحجرة التالية سرير لم يرتب قط إلا بيد ذلك الشاب ومن قبله شاب ثان ومن قبله أيضا شاب أول .. سلسلة شاقة جعل يتذكرها بعد فوات الأوان لكنه لم يكن يشعر بالندم فلقد وهب حياته لناس آخرين منهم من يعرفه ومنهم من لا يعرفه وهو يشعر الليلة شعورا مؤكدا أنهم جميعا أبناؤه ..

ثم ما لبث أن انصرف عن هذه الأفكار . ونظر إلى منضدة فى الركن وابتسم كطفل عثر فجأة فى مخبأ فى البيت على لعبة كان قد نسيها . فعلى هذه المنضدة وضعت فى طبق فطيرة صغيرة .. محشوة بالفواكه وموشاة بها . ومن الممكن أن يأكلها كلها لأنه يحب هذا النوع من الفطائر ومن الممكن أن يكفيه نصفها ويترك النصف الثانى حتى الصباح

وفرك كفيه وفكر .. الدنيا برد .. لو أنه يستطيع أن يصنع لنفسه فنجالا من الشاى الساخن !!

ويقطم منها ويشرب ويمضغ ويقرأ ويفكر فى هدوء الوحدة التى يتمنى ألا يقطعها عليه زائر . وتذكر كتابا . فقام يبحث عنه . ولسبب غير واضح ضل

طريقه إليه فلما تعب عاد إلى مكانه من جديد وجلس يدخن . عيناه معلقتان بالشباك الذى استرخت عليه ستائر لا يعبرها صوت من الحى الهادىء .. وعندئذ شعر بالاسترخاء . شعر كأنه يريد أن ينام . لكنه أحس بحاجة أكبر إلى فنجان من الشاى الدافىء .

وعندما هم بالقيام سمع دقة جرس الباب فابتسم وسأل نفسه : من هذا يا ترى ؟ وقام ففتح فدخل ثلاثة من الأصدقاء الذين يحملون ذكريات عمر مشتركة .. ذكريات اتفاق واختلاف فى الرأى وحب وتقدير لا يفسده أن يختلفوا . فقال لهم عندما رآهم : كنت أظن أن برد الليلة سيجعلنى وحدى . لكن كيف جئتم ؟ فقال أحدهم وهو أكثرهم مرحا : إن لذلك قصة طريفة يا أستاذ فأنت تعلم أننا نسكن ضاحية المعادى وأن بيتك فى وسط القاهرة وأننا هنا الآن ، وربما أننا لم نرك منذ عشرة أيام وبما أننا أيضا مفلسون وفى أواخر الشهر فقلنا نمر عليك ونراك . لعل وعسى . . وأنت تفهم الباقى .

فضحك متهللا . وتذكر « نادرة » المطعم حين دعوه لتناول العشاء ثم احتالوا عليه حتى دفع الحساب . لكنه قال مشيرا إلى الركن حيث الفطيرة الشهية :

ـــ هذه الفطيرة كما ترون . كنت محتفظا بها لنفسى أو ..أو على الأكثر لشخص آخر معى . فهى طعام لاثنين فقط . أما الآن بعد أن حضرتم وليس عندى غيرها فقد أصبحنا أربعة . وكلكم يعرف كيف تقسم هذه الفطيرة المستديرة .. بنفس طريقة قسمة الرغيف . نصفان أولا ثم كل نصف يقسم إلى نصفين ..والأمر لله يا سادة .

فرد أكثرهم ظرفا :

ـــ ما أحلى هذا ! ! ولو أنها لا تكفينى وحدى . أنت مفكر وتعلم أن المفكرين لا يأكلون . إن غذاءهم فى داخلهم وليسوا محتاجين إليه مـــن

الخارج . فهلا تفضلت وتركت لى نصيبك منها .. لا تنظر إلى ساخرا . فكثير من الآباء يحكمون على أنفسهم بالحرمان بين أولادهم الكثيرين فاعتبرنا أولادك فى هذه الليلة وتفضل بحرمان نفسك مما تشتهى ولا تحزن فهى مسألة شائعة .

فرد وهو يدق كفا بكف :

ـــ لكننى لست مسئولا عنكم . أما الأب الذى تقول عنه فهو مسئول .

قال ثالث :

ـــ لماذا إذن سمحت لنا بالدخول . لو شئت لتركت الباب مقفلا فى وجهنا وارتحت من متاعبنا وأكلت الفطيرة وحدك ، أو أبقيت نصفها حتى الصباح ؟

فقال رب البيت :

ـــ على كل حال هذه بلوى محتملة ولو أن فيها مشقة على . ليقم أحدكم فيصنع أربعة فناجيل من الشاى ولا ينسى أننى أحبه خفيفا حتى أستطيع النوم ..

وقام اثنان منهم إلى المطبخ . أخذ أحدهما يعد الشاى على حين رجع الثانى بسكين . ودخل وقد رفعها فى الهواء مثل السيف وهو يهتف :

ـــ اتركنى عليها لأجعل الشربات تسيل من جسمها الحلو . . ولن أجور ولن أظلم . . نحن أربعة .. لكل منا ربعها . ما أحلى وجهها المدور« ثم همس له » نحن اثنان الآن فلماذا لا نأكلها فى هذه الفرصة وهم هناك يصنعون الشاي . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .. لنترك لهما الشاى ولنأكل نحن الفطيرة أنا وأنت .. هلم .

رد رب البيت قائلا : هذا ما يحدث دائما إذا ما تزاحمت الأفواه على شيء . ولعله كان من الخير أن أخفيها عنكم . لكن بما أنكم اعتبرتم أنفسكم أبنائى فليأخذ كل منكم قطعة صغيرة قدر ما يأخذ أخوه . آه .. هل تسمع المطر فى

الخارج ؟ ! ثم قل لى .. ماذا عمل ابنك السابع فى امتحان نصف السنة ؟

فرد الضيف :

ـــ إنك عالم نفسانى . تذكرنى بهمومى لأنسى الطعام . تثير أشجانى لصالحك الخاص . « وضحك » إنك على حق فأنا عندما أنادى « حسام » أنسى فأقول يا « عصام » ، وإن كنت فى الحقيقة لا أقصد إلا أن أنادى « همام » وعندما أهتدى إلى الاسم المطلوب الذى أريده أجد الثلاثة أمامى كالعفاريت وعندئذ يبدأ كل فى رفع شكوى أو طلب شىء .. آه .. تريد أن تنسينى الشىء الجميل بإثارة همومى .

فعاد رب البيت يضحك وسمعت وقع أقدام رجل غير مدرب يحمل الصينية عليها أربعة فناجيل دخل بها مرتبكا فسالت حوافيها فلما حذروه زاد ارتباكه وساد المكان ضحك لرجال ناضجين شغلهم جد الحياة سنحت لهم فرصة للهو فاغتنموها .. ووضع الشاى وأمسك السكين أبو السبعة ليقسم الفطيرة فقال له أحد الضيوف مازحا :

ـــ لا . دعها لى . أنا أكثر منك عدلا لأننى أقل منك رغبة كما أننى آكل كل أسبوع من هذا النوع . أما أنت فلا تعرفها إلا فى أعياد الميلاد يا صديقى .

وقفا يتنازعان السكين وهم يضحكون وطال النزاع فما أخرجهم منه إلا دقة جرس الباب مرة أخرى ، عندئذ ضحك رب البيت وانتبه الضيوف . وقال أحدهم :« هس . أذن من طين وأذن من عجين . المفروض أنه لا أحد هنا وأن الأستاذ قد نام » .

فقال رب البيت :

ـــ لا افتحوا فربما كان الشاب الذى يقوم بأمورى ولا تنسواأن والده مريض . وربما كان محتاجا إلى شىء ما .

فذهب أحدهم يجرى . وعندما فتح الباب له ارتفع صراخه . فأخذ

الرجال الثلاثة فى داخل الشقة إذا أيقنوا أن فى الأمر مكروها . لكنهم ما لبثوا أن عرفوا أن سبب ذلك هو دخول ضيف خامس سيشاركهم فى الفطيرة التى لا تكفى إلا ثلاثة منهم على الأكثر .

ونظر الضيف الجديد مبهوتا . وقال : ماذا أصابك يا أبا حسام . حرام عليك افسح لى الطريق لأدخل وأقفل الباب .. وورائى الدنيا برد والسماء تمطر . وهناك رعد وبرق . ولعلى أجد شيئا أستدفىء به .

فقال أبو حسام متسائلا :

ــ ليس هذا مهما . المهم أن تقول لنا : لماذا جئت فى مثل هذا الجو ؟

فقال :

ــ عذر متعلق بالجو أيضا . والله لا شىء إلا الجو . أوه ... أعطنى أولا نصف هذه الفطيرة وفنجالا من الشاى .. لا تصرخ تمهل فإننى سأقول السبب .. السبب هو أننى مسافر غدا . وجعلت أنا وزوجتى نبحث عن معطفى فلم نجده لا فى السماء ولا فى الأرض . فجعلت أتذكر حتى رجحت أنى نسيته هنا ليلة أمس . ولذلك جئت .

قال رب البيت :

ــ إنك على حق .. إنه هنا . دفء أمس أنساك المعطف وذكرك به برد الليلة . ونحن نذكر دائما ما نحتاج .. ولذلك فيجب ألا تنسى المعطف بالفطيرة هذه التى تزاحمتم عليها حتى كدت أضيق بكم .

فقال أبو حسام :

ــ المشكلة ليست فى المعطف بل المشكلة فى الفطيرة . نحن نريد مهندسا ليقسم لنا هذه الدائرة الصغيرة ببرجل إلى خمسة أقسام .. يا إلهى .. كأن المشكلة تطاردنى . كنت متحيرا فى شىء من هذا القبيل أنا وزوجتى من أجل أولادى السبعة لكنها مشكلة لا يحلها مهندس ، ولو أن المهندس يحلها لرجع

إلىّ عقلى الذى ضاع .

وضحكوا . وبدأ هو نفسه يقسم الفطيرة إلى خمسة . وقام أحدهم ليصنع له فنجالا من الشاى لكنه تحير فى الأمر فقال له رب البيت :

ـــ مهلا .. لا تتعب نفسك . اقسمها على أربعة ..

فرمى السكين وصفق ثم عاد فأمسك بها وسأل : وما السبب ؟ فأجاب رب البيت :

ـــ لقد تنازلت عن نصيبى لأننى فى الحقيقة أكلت واحدة منها وحدى .. وليس بى حاجة إلى شىء جديد ، وكل ما أحتاجه هو فنجال من الشاى .

فرد أبو حسام :

ـــ مرحبا برأيك ! .. ما أعظم هذا !! إنك تشبهنى أو أنت على الأصح تشبه زوجتى !! أقصد أننا فى بيتنا نتنازل عن أشياء ضرورية مدعين عدم أهميتها . ومشكلة هذه الفطيرة كمشكلة البيت الذى سأذهب إليه . وأنت أيها السيد نسيت المعطف لتحرم الأستاذ من نصيبه ... هيا كلوا قبل أن يبرد الشاى !!

* * *

وبدأ الأربعة يأكلون . وبدأ الجرس يدق لكن أحدا منهم لم يحاول أن يذهب ليفتح الباب. وألح الطارق كأنما كان يستنجد. فلما هم رب البيت بالقيام ليفتح قال لهم أبو حسام وصوت المضغ يقطع كلماته بعد أن قطع الطريق على رب البيت :

ـــ إن فتحت له الباب كنت مسئولا عن طعامه ... هذا مفهوم طبعا . وبما أنك لا تملك سوى ما قدمته لنا بعد أن حرمت نفسك من أجلنا فلا تفتح الباب لأحد .. حرام أن يتبع بنظره ما فى أيدينا .. لا لن تفتح له .. كلنا أصحاب مصلحة فى اعتراض طريق قادم جديد .. وهذه الحماسة التى أكلمك بها من مرارة تجربة شخصية . دعه يطرق الباب حتى ييأس . فهو مادام فى الخارج فلن

يلومك إذا لم يأكل من هذه الفطيرة لكنه بعدما يجيء فيصبح حقه فيها مقدسا .. مثل حق أى منا .. لا تتضايق فقد فرغنا الآن من مهمتنا .. « وضحك » ها أنت ذا ترى الأطباق فارغة وكذلك الفناجيل .. آه .. والآن اذهب يا رب البيت وافتح له إن شئت ، فنحن الآن فى أمان .

لكنهم عندما صمتوا وأرهفوا السمع كان الجرس قد كف عن الرنين . فلما ذهب أحدهم وفتح الباب ليتأكد وجد البسطة خالية والظلام مخيما عليها .. ولا أحد . فلما عاد يعلن إليهم ذلك قال رب البيت لأبى حسام مداعبا :

ـــ تعلم الناس وتنسى نفسك . لماذا وأنت ما هو فى الحساب هكذا تقع فيما تنهانى عنه وتفتح الباب لمن لا طعام لهم عندك مع أننى يا أبا حسام لم أقع فى شيء من هذا .

فرد عليه قائلا :

ـــ لا شيء أغلى من نصيحة من جرب حتى لو لم ينتفع هو بتجربته .

فرد أحدهم سائلا :

ـــ وكيف ذلك ؟

ـــ فقال أبو حسام :

ـــ لأن حسرته على نفسه تجعل دعوته للآخرين أشد حرارة وبقاء وصدقا .

★ ★ ★

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

« ولكن يمكن الجزم منذ الآن فصاعدا بأن محمد عبد الحليم عبد الله قد فرض نفسه كروائى لدلتا مصر ؛ إنه روائى الدلتا المصرية ، أى ذلك المثلث الأخضر المعلق على خريطة القطر بواسطة أكبر مدينتين فى قارة أفريقيا ، فمن البحر الأبيض المتوسط حتى جبل المقطم ، يسبّح عبد الحليم عبد الله لتلك الأرض الخضراء الخصيبة المليئة بالخيرات والمتناقضات أيضا : الإسكندرية والقاهرة والريف المزدحم وقد سقاها النيل .. إنه روائى الدلتا الداخلية ؛ لأنه يقودنا إلى داخل الإنسان ، سوف تكتشف فى أعماله صفحات تصف الشواطئ التى تقصفها الرياح ورمالا ساخنة هجرها الحب ، غير أنه يضفى على الإنسان قوة رائعة وسخية تسرى فيه كالنيل الذى يهب الحياة » .

من دراسة للمستشرق : **جوردان موتو** (ترجمة : **سمير وهبى**)

قرش

ـــ لقيطة (ليلة غرام) : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة ، جائزة وزارة الشئون لأحسن فيلم ، ترجمت إلى الفارسية .		٣٥٠
ـــ بعد الغروب : قصة الفقير الموهوب يشق طريقه بالفأس فى الصخور . جائزة وزارة التربية والتعليم .		٣٠٠
ـــ شجرة اللبلاب : قصة عذراء أهدت قلبها لشاب متردد شكاك . ترجمت إلى الإنجليزية .		٢٥٠
ـــ شمس الخريف : ماذا تأخذ منا الحياة .؟ وماذا تعطى ؟ ، جائزة الدولة فى الأدب .		٣٥٠
ـــ غصن الزيتون : لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى , لا تشقينا بالحب مرتين يا إلـهى . ترجم إلى الصينية .		
ـــ الماضى لا يعود :	(مجموعة أقاصيص)	٢٢٥
ـــ من أجل ولدى : قصة الحب العائلى والمرأة فى صورها الأربع أمًّا ، وزوجة ، وحبيبة ، وعشيقة .		٣٠٠
ـــ ألوان من السعادة :	(مجموعة أقاصيص)	٢٢٥
ـــ الوشاح الأبيض : قصة حب جميل .. ولكن هل حققت الأيام مُنى المحبين ؟		٢٥٠
ـــ سكون العاصفة :	(قصة طويلة)	٤٢٥
ـــ الضفيرة السوداء :	(مجموعة أقاصيص)	١٥٠
ـــ الجنة العذراء :	(مجموعة أقاصيص)	٢٢٥
ـــ أشياء للذكرى :	(مجموعة أقاصيص)	٢٧٥
ـــ خيوط النور :	(مجموعة أقاصيص)	٢٧٥
ـــ حافة الجريمة :	(مجموعة أقاصيص)	٣٠٠
ـــ الباحث عن الحقيقة :	(قصة طويلة)	١٢٥
ـــ البيت الصامت :	(قصة طويلة)	٣٢٥

		قرش
— أسطورة من كتاب الحب :	(مجموع أقاصيص)	٢٢٥
— للزمن بقية :	(قصة طويلة)	٢٢٥
— النافذة الغربية :	(مجموعة أقاصيص)	٣٠٠
— جولييت فوق سطح القمر :	(مجموعة أقاصيص)	١٥٠
— قصة لم تتم :	(قصة طويلة)	٢٥٠
— الدموع الخرساء :	(مجموعة أقاصيص)	٢٠٠
— لقاء بين جيلين :	(لقاء المؤلف مع عمالقة القصة)	٢٠٠
— الوجه الآخر :	(كاتب القصة ناقد)	٣٠٠
— غرام حائر :	(أول قصة للمؤلف)	٢٥٠
— حلم آخر الليل :	(مجموعة أقاصيص)	٢٥٠
— عودة الغريب :		٢٥٠

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

736
Bibliotheca Alexandrina
0294236

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com